سيميائية العنوان في روايات محمد جبريل
(الأسوار، حكاية الفصول الأربعة، حكايات و هوامش من حياة المبتلى)

أ/ رحماني علي
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم الأدب العربي، جامعة – بسكرة –

1/ العنوان في الرواية

إن العنوان هو الذي يوجه قراءة الرواية ,ويغتني بدوره بمعان جديدة بمقدار ما تتوضح دلالات الرواية فيها المفتاح الذي به تحل ألغاز الأحداث وإيقاع نسقها الدرامي وتوترها السردي ,علاوة على مدى أهميته في استخلاص البنية الدلالية للنص ,وتحديد تيمات الخطاب القصصي ,وإضاءة النصوص بها ,إن العنوان كما كتب "كلود دوشيه" (DUCHET CLAUDE) عنصر من النص الكلي الذي يستبقه ويستذكره في آن ,بما أنه حاضر في البدء ,فهويعمل كأداة وصل وتعديل للقراءة.

إن العنوان في الحقيقة مرآة مصغرة لكل ذلك النسيج النصي واسم فارغ ,وهذا يعني أنه علامة ضمن علامات أوسع هي التي تشكل قوام العمل الفني باعتباره نظاما ونسقا يقتضي أن يعالج معالجة منهجية أساسها أن دلالة أية علامة مرتبطة ارتباطا بنائيا لا تراكميا بدلالات أخرى ,ومن ثم فإن العنوان قد يجسد المدخل النظري إلى العالم الذي يسميه ,ولكنه لا يخلفه إذ إن العلاقة بين الطرفين قد لا تكون مباشرة كما هو الشأن في الآثار الفنية التي يحيل فيها العنوان على النص والنص على العنوان ,وفي هذا الحال فإن العنوان يتحول من كونه علامة لسانية أو مجموعة علامات لسانية تشير إلى المحتوى العام للنص إلى كونه لعبة فنية وحوارية بين التحدد واللاتحدد ,بين المرجعية المحددة وبين الدلالات المتعددة وذلك في حركة دائبة بين نصين متفاعلين في زمن القراءة.

انطلاقا من كل هذا يكون بالإمكان تتبع العنوان في النص والشروع في نمذجة تصنيفية للعناوين وفقا لعلاقاتها بالشرح الروائي بالذات عن طريق الاختزال إلى الحد الأقصى ,فإما أن الرواية تعبر عن عنوانها ,تشبعه وتفك رموزه وتمحوه ,وإما أنها تعيد إدماجه في جماع النص وتبلل السنن الدعائي عن طريق التشديد على الوظيفة الشعرية الكامنة للعنوان ,محولة المعلومة والعلامة إلى قيمة والخبر إلى إيحاء[1].

إن العنوان الذي يلتصق به العمل الروائي قد يكون صورة كلية تحدد هوية الإبداع ,وتجمع شذراته في بنية مقولاتية تعتمد الاستعارة أو الترميز ,وهذه الصورة العنوانية قد تكون فضائية يتقاطع فيها المرجع مع المجاز ,فمثلا عنوان الرواية "زقاق المدق" عند نجيب محفوظ قد يعين الحارة الضيقة من حارات القاهرة القديمة كما يعني سكانها من البشر خلال الحرب العالمية الثانية. لكن امتداد ظل هذا الزقاق كمكان وقيامه بدور المركز في الحركة القصصية وتحديد مصائر من يسكنه جعله يقوم بدور البطولة الفعلية في القصة ويفرض نفسه على عنوانها ويبلور رؤية المؤلف لعالمه.

ومن هنا فالعنوان عبارة عن صيغة مطلقة للرواية وكليتها الفنية والمجازية ,إنه لا يتم إلا بجمع الصور المتشتتة وتجميعها من جديد في بؤرة لموضوعات عامة تصف العمل الأدبي ,وتسمه بالتواتر و التكرار و التوارد ,فالصورة العنوانية قد تندرج ضمن علاقات بلاغية قائمة على المشابهة أو المجاورة أو الرؤيا ,فيتجاوز العنوان مجازيا مع دلالات الفضاء النصي للغلاف ,وتنصهر الصورة العنوانية اللغوية في الصورة المكانية لونا ورمزا.

هذا وإذا تأملنا النصوص الروائية فغالبا ما نجد على ظهر الغلاف سجل العنوان وتحته التعيين الجنسي (رواية) على شكل عنوان فرعي مكتوب بأحرف صغيرة. على عكس العنوان الأساسي الذي يكتب بأحرف بارزة كبيرة دلالة على أهمية بعده الأيقوني ومركزيته في إبراز دلالات الرواية ,والعنوان الذي يحدد التعيين الجنسي (الرواية) هو بيان إيضاحي يؤكد مدى احترام العمل الإبداعي لخصائص الجنس الروائي وسماته بطريقة جمالية وفنية ,كما نجد عناوين الفصول التي تلخص مضامينها وتكشف أهم ما

[1] جميل حمداوي ,صورة العنوان في الرواية العربية ,ص4.

جرى فيها من أحداث ووقائع. وتسجل أسماء شخصياتها والأدوار التي قامت بها والصعوبات التي واجهتها في حياتها والمصير الذي آلت إليه في نهاية المطاف[2].

ويتطلب العنوان من المؤلف وقتا واسعا من التأمل والتدبر لتوليده وتحويله ليصبح بنية دلالية وإشهارية عامة للنص الروائي ,فكل عنوان يلصقه الكاتب على ظهر روايته أو يعلقه كالثريا في رأس الصفحة أو يموقعه في وسط كل فصل أو قسم لا شك أن المؤلف أفرغ فيها جهدا وتطلب منه اختياره ,لأن صياغة عنوان أو أي عمل إبداعي جزء من الكتابة الفنية نظرا لما للعنوان من أهمية على المستوى الإعلامي أولا ,على المستوى الفكري ثانيا وعلى المستوى الجمالي ثالثا ,ونظرا إلى كل هذه الاعتبارات فإن العنوان ذو أهمية خاصة بالنسبة للمؤلف والمتلقي على السواء, لأنه جماع النص وملخصه ,ويمكن اعتبار العنوان الروائي بنية عامة قابلة للتحليل والفهم والتفسير والتقويم أيضا من خلال عناصر النص الأساسية التي تمثل في مشاهده و متتالياته ووحداته الوظيفية ومراحل تكوين بنيته العامة, التي تتمثل كذلك في بنياته الأساسية وخطاباته , ومنظوره الفني الذي يبدو في الشخوص ,والأحداث ,والفضاء الروائي ,والراوي ,ومنظور التعدد (الرواة ,اللهجات- اللغات).

وليست العناوين الروائية دائما تعبر عن مضامين نصوصها بطريقة مباشرة أي تعكسها بكل جلاء ووضوح ,بل نجد بعض العناوين غامضة ومبهمة ورمزية بتجريدها الإنزياحي ,مما يطرح صعوبة في إيجاد دلالة بين العنوان والنص ...ولكن على القارئ أن يبحث عن العلاقة بين العنوان والنص وأن يبحث عن المرامي والمقاصد والعلاقات الرمزية والإيحائية ,فكثير من المبدعين كتبوا نصوصا بعناوين غامضة وبعيدة عن مضامينها ,مثل رولان بارت وسارتر في (les mots).

ومن هنا نؤكد أن ثمة عناوين مخادعة ومظللة للقراء ,لا تعبر عن محتويات أعمالها ولا تصور لهم الدلالة الحقيقية التي ينطلق بها النص ,مثل رواية محمد برادة (لعبة النسيان18) ,حيث يصير العنوان عبارة عن مجرد تسمية كثيرة ممكنة وهي على الرغم

[2] جميل حمداوي ,صورة العنوان في الرواية العربية ,ص5.

من اختيار المؤلف ليست ملزمة للقارئ الذي من حقه أن يقترح للكتاب المقروء عنوانا بديلا أو تسمية جديدة قد تكون أكثر ملائمة وأصدق تعبيرا[3].

2/ منهجية مقاربة العنوان:

عند دراسة العنوان لابد من تأطيره ضمن النص الموازي أو العتبات ,أو هوامش النص كما يعبر (هنري متران). وهذه العتبات عبارة عن ملحقات تحيط بالنص من الناحية الداخلية أو من الناحية الخارجية. وهي تنسخ خطابا روائيا عن النص الإبداعي ,وترسل حديثا عن المجتمع والعالم. ومهما بدت مستقلة أو محايدة , فإنها شديدة الارتباط بالنص الروائي الذي تقف في بوابته ومداخله.

وترتكز مقاربتنا لعناوين النصوص الروائية على منهجية مبنية على أربع خطوات أساسية نجملها في:

- البنية
- الدلالة
- الوظيفة
- القراءة السياقية: الداخلية والخارجية.

ولقد اخترنا هذه المنهجية لأن العنوان يعكس لنا النص في تضاريسه السطحية والعميقة, ومن ثم فالعنوان هو النص, والعلاقة بينهما علاقة تفاعلية وجدلية ,وهو كذلك بؤرة النص التي يتمحور حولها, وما النص إلا تكملة للعنوان وتمطيط له عبر التوسع فيه وتقليبه في صيغ مختلفة.

يشكل العنوان –إذا– خطابا أو نصا مستقلا في حد ذاته ,فهو نواة معنوية أساسية, وكل ما تلاه من ملفوظ فهو عبارة عن شرح وتوضيح له. وهكذا فالعنوان الذي يوجد في أعلى الصفحة هو أساس كل خطاب روائي ,عليه يبنى النص أو المشهد أو الفصل أو القسم أو المقطع الروائي عبر التحوير والشرح والتمطيط والإسهاب في المعنى وتفصيله حتى يمكن لنا القول: إن الرواية تتخلص غالبا في العنوان ؛ لأنه المركز وما عداه محيط ,أما

[3] جميل حمداوي ,صورة العنوان في الرواية العربية ,ص6.

العلاقة بينهما فهي علاقة جدلية تتمثل في تفاعل النص مع العنوان عبر الانسجام الدلالي أو تخييب أفق انتظار القارئ[4].

وفي كل هذا ننطلق من العنوان إلى النص , ومن النص إلى العنوان عبر مراعاة السياقين: الداخلي والخارجي, ومن خلال القراءة المباشرة وغير المباشرة مراعين مبدأ التأويل المحلي ومقاصد النص ونوايا المبدع.

وإذا كنا نؤكد مدى نسبية هذه المقاربة العنوانية ,فإن هناك من يحاول أن يصفها بالعلمية اعتمادا على معطيات اللسانيات والسيميائيات ,فقد أصطلح على الاهتمام بالعنوان والاشتغال عليه (titrologie) (علم العنونة) أو (علم العناوين)... ومن ثم صار العنوان موضوعا لعدة مقاربات سيوسيولوجية ,وسيكولوجية ولسانية ,وسيميائية ونقدية بحسب اختلاف الرؤى الإيديولوجية والمنظورات الذاتية والموضوعية. ويمكن تقسيم العنوان منهجيا إلى العنوان الخارجي (العنوان الغلافي أو المركزي) ,والعنوان الداخلي (العنوان الرئيسي) ,والعنوان الفرعي ,والعنوان الفهرسي ,بينما يقسمه "جيرار جنيت" إلى العنوان الأساس والعنوان الفرعي والتعيين الجنسي ,كما يحدد العنونة أربع وظائف أساسية: الإغراء والإيحاء والوصف والتعيين.

وعليه فإنه لمقاربة الرواية وعوالمها التخيلية لابد من استحضار عتبات النص الموازي بصفة عامة ,وهوامش الخطاب الغلافي من واجهتيه الأمامية والخلفية بصفة خاصة[5].

3/سيميائية العنوان في رواية (الأسوار):

3-1- توطئة: فرغ الروائي محمد جبريل من كتابة الأسوار في السابع عشر من فبراير عام سبعين وتسعمائة وألف ,ثم اختارتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ,في العاشر من ديسمبر عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف لتكون أول رواية تصدرها في السلسلة المعروفة باسم (روايات مختارة) ,بما تمتلكه الرواية من امتيازات فنية مفارقة للمنجز الروائي العربي في ذالك الوقت.

---

[4] جميل حمداوي ,صورة العنوان في الرواية العربية ,ص7.

[5] جميل حمداوي ,صورة العنوان في الرواية العربية ,ص7.

تقع الأسوار في حوالي عشرة ومائة صفحة من القطع الصغير ,منها خمس صفحات ملأى برسوم مفعمة بالدلالة على البأس والقهر ,وصفحة مملوءة باقتباسات مختلفة مصادرها.

تكتظ الراوية بالعديد من الشخصيات ذوي الأواسط المتباينة ,وتعالج ثنائية القهر والحرية وما ينبثق عنها من ثنائيات فرعية ,كالإيثار والثبات على المبدأ ,الخيانة وحب التضحية مناجل خلاص الآخرين ,وكلها ثنائيات ذات طابع إنساني ,سبق وأن عالجها روائيون عديد ون مثل نجيب محفوظ في "الكرنك".

والأسوار تفارق المألوف على نحو ما يظهر في عتبات دخولها ,وفيما ينشر فيها من جمل حوارية فصيحة ,شديدة التكثيف ,متوترة توتر نزلاء المعتقل الذي جرت على أرضه أغلب الأحداث ,إضافة إلى ما عول عليه الكاتب من تقنيات غير مألوفة ,كالوصل ,القطع ,الاسترجاع ,القص واللصق ,الناص ,الحوار ,بل إن استقبال الأسوار يباين في شروطه استقبال غيرها من الروايات ,لاسيما في ظل التعقيد الذي لحق بالحبكة نتيجة تعويل الكاتب على التقنيات السابق ذكرها.

3-2- سيميائية العنوان:

الأسوار هي جمع السور: و"هو اللفظ الدال على كمية أفراد الموضوع"[6] ,ويعد العنوان (الأسوار) أول عتبات الرواية وأول ما تقع عليه عين المتلقي ,وهو عنوان متعدد الوظائف ,فهو يعرف الرواية ,ويشير إلى محتواها ,ويمارس تأثيره الإغرائي في المتلقي ,بفضل ما يحف به من شفيف الظلال التي يمتزج فيها الغموض بالتشاؤم ,والترقب بالتفاؤل الحذر.

وللعنوان (الأسوار) طبيعة مرجعية ,فهو يحيل إلى النص ,كما أن النص يحيل إليه , خاصة حين يتقدم القارئ في القراءة حيث تطالعه تقارير سردية مثل:«الأسوار بقعة رملية أو مرصوفة ,العربات المتجهة إلى السوار تقذف بنفسها في الرمال الممتدة ,ربما صادفت حفرة عميقة ,تسلم نفسها إليها بلا قصد ,ينزل السائق ,ليرفعها النزلاء فيما بعد بأكتافهم.

الأسوار من بعيد مدينة أسطورية ,كل ما بداخلها معزول عن العالم الخارجي ,أبراج الحراسة ,في الأركان الأربعة ,مجهزة بالأنوار الكاشفة والمدافع الرشاشة ,الممنوعات

---

[6] الشريف علي بن محمد الجرجاني ,التعريفات ,دار الكتب العلمية ,بيروت ,لبنان ,سنة 1995 ,ص123.

,تشمل كل شيء:الأقلام والأوراق ,والصحف والراديو ,والسجائر ,والكبريت ,والجبن ,والحلاوة ,والشاي ,والبن»[7].

وقد وضع محمد جبريل لروايته عنوانين ,أحدهما: (الأسوار) ,وهو العنوان الرئيسي الذي تقع عليه عين القارئ أول مرة على الغلاف الخارجي ,و الآخر: عنوان مصاحب للعنوان الرئيسي وهو (لحظات مصرية) وتقع عليه عين القارئ على الغلاف الداخلي , ومن ثم يصبح العنوان الداخلي (الأسوار لحظات مصرية). وترجع قيمة العنوان المصاحب إلى كونه مؤشرا على قيمة الزمان "اللحظة" داخل المكان "المعتقل" الذي يحجب بأسواره أنوار الحرية عن النزلاء ,هذا إلى جانب دلالته الزمنية على قيمة اللحظة في تحديد مصائر أولئك النزلاء الذين يقبعون خلف الأسوار ,لقد فقدت السنون والشهور والأيام والساعات والدقائق معانيها خلف الأسوار ,وأصبح الزمن يقاس باللحظة وما يصاحبها من تعذيب وعاهات.

إن العنوانين الرئيسي "الأسوار" والمصاحب "لحظات مصرية" يؤسسان عقد القراءة بين الكاتب والمتلقي ,وبتأثيرهما يكيف القارئ قراءته للنص ,وتأخذ توقعاته في تشكل عمن سوف يلتقي بهم داخل الأسوار من شخصيات تمارس القمع ,وأخرى مقموعة ,فيها المتسلق والانتهازي والخائن ,وفيها المقاوم الذي لا ينال من ثباته ترغيب أو ترهيب , فيها اللص والظالم والمظلوم ,فيها أحلام الحرية التي تخبو تحت تأثير الهوان واليأس ثم لا تلبث أن تشرق الشمس من جديد.

يشكل العنوان "الأسوار لحظات مصرية " أفق التوقع لدى القارئ , يحرضه على ارتقاب النهاية ,كالإفراج عن المعتقلين ,أو تحطيم الأسوار ,أو فضح الخائنين والانتهازيين والمنحرفين ,أو شفاء النفوس من أمراضها ,إلى غير ذلك من النهايات التي تغري باستمرار فعل القراءة ليكتشف القارئ عند عتبات الخروج من النص مدى صدق أو خيبة توقعاته.

كما أن للعنوان شاعرية لا يمكن إنكارها ,لأن هذه الشاعرية تعطينا بعدا تاريخيا ,وهي قادرة على التحليق فوق نثرية الحوار عن خيبة السجناء في نتيجة الاقتراع الخائنة ,وكأنما

---

[7] محمد جبريل ,الأسوار ,دار مصر للطباعة ,سعيد جودة وشركاه ,ط2 ,ص63.

كانت هذه الخيبة التي وقعوا فيها نتيجة حبهم الشديد ,وصفاء قلوبهم وعدم توقعهم الخيانة من داخل الأسرار أو خارجها.

لقد عبر محمد جبريل في هذا النص عن وجهة نظره دون أن يقع في المباشرة أو التقريرية ,وأدان عصرا بأكمله ,وصور مواقف السلطة من أصحاب الفكر ,لأن هذا هو بداية الفساد الذي يدمر كل شيء ,كما أعطانا بعدا إنسانيا عاما ,عن تاريخية القهر في مصر ,واستمراره أحقابا طويلة.

كما ان الواقع هو الأرضية التي يتحرك عليها محمد جبريل في روايته "الأسوار" ومن ثم بطله "الأستاذ" ,والواقع يمد محمد جبريل ببذرة الأحداث والشخوص ,وعليه فهو يستنبتها في إطارها الفني ,إنه في مقالته "تجربة ذاتية " يذكر شهادته عن روايته الأولى وملابساتها التي قابلته يوما ,في بداية عمله الصحفي في جريدتي "الجهورية" و"المساء" فيقول:«يوما طلب مني الجويلي أن أجري حوارا مع شاب ارتكب ثلاث وعشرين حادثة سرقة سيارة ,قبل أن يكتشف أمره في الحادثة الرابعة والعشرين .وروى لي الشاب عن ظروفه الاجتماعية وعن أجواء المعتقل الذي قضى فيه أعواما ... حتى الإفراج عنه في ظروف بالغة القسوة والغرابة: فقد ألح نزلاء المعتقل في طلب الإفراج ,أرسلوا برقيات إلى المسئولين ,وأضربوا عن الطعام ,وتظاهروا وتشاجروا إلى حد الاقتتال مع حراس المعتقل ,ثم لجئوا إلى وسيلة بشعة لتأكيد مطلبهم في الإفراج ,أجروا قرعة في أسماء كل النزلاء ,واختير عشرة أسماء تعرض أصحابها للموت حرقا ,علانية في ساحة المعتقل ,وكانت تلك الوسيلة القاسية هي الباعث لاهتمام المسئولين ,ودراسة حالتهم للإفراج عن غالبيتهم»[8].

إن الأحداث التي رواها محمد جبريل في مقالته هذه التي تشكل العمود الفقري للأحداث ,وإن اختلفت في النص الروائي بالطبع عن الواقع الحادث ,وليست الأحداث فقط هي التي استوحى بذرتها من الواقع ,ولكن بعض الشخصيات أيضا.

ومن هنا نستطيع القول أن العنوان الخارجي للرواية "الأسوار" جاء بالفعل عاكسا للرواية وللأحداث التي تجري في مضمونها بصورة حية وواقعية ,لأن لها صلة كبيرةبالواقع

[8] حسين علي محمد ,صورة الأستاذ في رواية الأسوار لمحمد جبريل ,موقع انترنت: www.arabicstory.net/forum/lofiuerson/index.php/t594.html

المعاش للشعب المصري في فترة زمنية معينة وقد تكون عاكسة للواقع السياسي العربي بصورة عامة. ومن هنا نستطيع القول أيضا أن الكاتب "محمد جبريل" هو ذلك الرجل الحائر المنشغل دوما بقضايا مجتمعه وبلده وهو يناضل في سبيلها دوما ,وهذا ما أكده الكاتب بقوله في شهادة منشورة مجلة فصول حيث يقول:«أنا مبدع مهموم سياسيا... إنها سدى اهتماماتي الشخصية والإبداعية في الوقت نفسه»[9].

جبريل المهموم سياسيا والمعني بتحقيق الحرية السياسية التي هي حق للمواطنين في المساهمة في حكم الدولة ...يوسع من مفهوم الحرية ,فالأهم عنده الكتابة عن الحرية. وهذا الهم السياسي يظهر نفسه في غالبية كتابات جبريل الإبداعية منه كتابه الأول "الملاك" والذي نشره ولم يتجاوز سن الكاتب آنذاك خمسة عشر عاما بعبارة:«أشياء ثلاثة كرست حياتي للدفاع عنها: الحرية والحق والخير ...وأرى أن التمتع بالحرية كفيل بأن يحقق الخير والحق... هل يمكن للإنسان أن يشعر بإنسانيته إلا إذا كان حرا! وهل يمكن للإنسان أن يتمتع بالحرية إذا لم يتمتع بها الآخرون ؟!»[10].

ويقول جبريل «إن لي موقفا من القضايا الإنسانية والاجتماعية وهذا الموقف يبين عن نفسه في أكثر من عمل قصصي وروائي ,ثمة وشيجة تربط روايتي "الأسوار" برواية "قاضي البهار ينزل البحر" في قضية التحقيق ,ربما تناولت الفكرة نفسها ,الموضوع ذاته في أكثر من عمل»[11].

يحمل إبداع محمد جبريل ملامح المفكر القلق ,فهو يبحث دوما عن كل ما هو حقيقي وإنساني في هذا العالم ,والإشارات الدالة التي بثها في نسج روايته وعلى لسان أبطاله وعبر اقتباسات معقدة تأكد على قيمة الفداء والتضحية ,وهي صلب علاقة المثقف بجماعته ومجتمعه.

هكذا نكون قد أوجدنا تلك العلاقة التي تربط رواية "الأسوار" بذلك الواقع المرير الذي تعيشه شعوب كثيرة في هذا العالم نتيجة للظلم والقهر الذي تمارسه السلطات الحاكمة.

---

[9] زينب العسال ,جبريل ومعنى الحرية ,نشر في الموقع:
www.amwague.net/amwague/19/shakhsyet/5.asp

[10] المرجع السابق.

[11] المرجع السابق.

4/ حكايات الفصول الأربعة:

4-1-توطئة:

"...تكتب و تكتب ,وتكتب... شعور أقرب إلى الراحة ,تطمئن إليه بأنك تعبر عن نفسك ,وتستدعي الأفكار والذكريات والرؤى والخواطر التي لا رابط بينها إلا استعادة ما مضى من أعوام العمر.. تتلاحق الصور ,تتلاقى ,وتتعامد ,وتتشابك ,تختلط الملامح والشجن والتعبيرات والمشاعر ,تعود للمواقف والحكايات العجيبة ,يعود الأمل والقلق والخوف ,تحقق مما لا تقدر على تبيين ملامحه ,وتوشي الألوان والظلال قطع الفسيفساء ,في مساحة اللوحة.."[12].

هكذا ينهي الروائي المبدع "محمد جبريل "روايته –الجديدة– حكايتا الفصول الأربعة والتي تضاف إلى انجازه الإبداعي ,وكذلك إلى الإبداع الروائي العربي كله.

وهو بحق يأخذ الإبداع بجدية ودأب ,وهذا الأمر يتبينه المتتبع لمسيرته الأدبية حيث أن أعماله الأدبية تدهشك دوما بتطورها الملحوظ في تقنيات السرد ,وهو يتحدث كثيرا عن (حي بحري) والذي تدور فيه معظم إبداعاته الروائية حيث نجده يقول: «...الحنين إلى المكان عندي..يتمثل في حنيني إلى (حي بحري) ,وهو الحي الذي ولدت فيه ,وإذا كنت أحيا –الآن– بعيدا عنه ,نتيجة لظروف عملي في القاهرة ,فإنه يحيا في داخلي دوما....المعتقدات ,والعادات والتقاليد ,وحياة الصيادين ,وأضرحة الأولياء ,والحياة في الميناء ,وصيد العصاري ,وليال رمضان ,والموالد والأذكار ,وكل ما يجتذبني إلى ذلك الزمن القديم...أنا من المفتونين بالمكان المصري وقد تمنيت أن تتاح لي الفرصة نفسها....»[13].

لا تعدو أن تكون هذه القراءة سوى وقفات تأمل عند بعض الشخصيات ,الأحداث التي بثها الفنان المبدع بفرشاته ,العقبة بزخم المشاعر والإحساسات الجميلة في السرد الروائي ,المصاغ بحنكة ,وحذق وبراعة لا متناهية.

---

[12] محمد جبريل ,حكايات الفصول الأربعة ,دار البستاني للنشر والتوزيع ,سنة2004 ,ص139-140.

[13] محمد جبريل وحكاية الفصول الأربعة ,نشرت في الموقع:
www.amwague.net/amwague/19/shakhsyet/10.asp

وعموما الموضوع الأساسي الذي أثاره الروائي في هـذه الروايـة هـو موضـوع الشيخوخة ,الموت التدريجي للقدرات البدنية ,صرع الجسد مع الموت الذي يؤذن بالمجيء ,مما يشغل الكاتب في مجمل عمله الروائي ,وخاصة في هذه الرواية ,لعل فـي عنوانهـا وحده ,"حكايات الفصول الأربعة" ما يشير إلى هذه الموضوعة ,ليست تلك فقـط فصـول السنة الأربعة ,بل هي أساسا فصول العمر الأربعة ,ليست فقط فصولا تمر بهـا سـنوات بطل أو شخص واحد –في متن الرواية– بل هي أيضا موزعة على شـخوص الروايـة بحذق وذكاء سردي ملحوظ ,من ربيع الصبا ,وعنفوان العمر إلى خريف التهاوي والإيذان بالسقوط ,ومنه إلى الشتاء الموحش القاحل.

ومن هذه الأرضية الخصبة انطلق "محمد جبريل" في رسم ملامح شخصيته البطلـة وهو "رفعت القباني" وهو يمر بهذه الفصول وما مدى تأثير كل فصل في حياته وكيف أن حياته أصبحت مجرد فصول ,يمضي فصل ويليه الآخر ,وهكذا دواليك... فالعمر يمضي وكل شيء يمضي معه.

4– 2– سيمياء العنوان:

العنوان "حكايات الفصول الأربعة"

حكايات جمع حكاية والحكاية هي "قصة الأحداث الماضية" إن الأمر يتعلـق حسـبما يذكر بنفسه "بتقديم الوقائع الحادثة في لحظة ,بدون تدخل للمتكلم في القصة" ويضيف "على الكاتب أن يصور ما هو غريب في قصة الأحداث من تأملات ومقارنات وحكم ,وبصـفة أوضح لا يكون هناك راو ,"يتم عرض الأحداث باعتبارها وقعت كما تظهـر فـي أفـق الحكاية"[14].

ورد في لسان العرب لابن منظور:

فَصَلَ: خرج

والفصل: واحد الفصول

والفاصلة: التي في الحديث ,من أنفق نفقة فاصلة في سبيل الله فبسبعمائة ,وفي رواية فله من الأجر كذا ,تفسيرها في الحديث أنها التي فصلت بين إيمانه وكفره.

---

[14] دليلة مرسلي وآخرون ,مدخل إلى السيميوطيقا (نص–صورة) ,ترجمة عبد الحميد بورايو (جامعة تلمسان) ,ديوان المطبوعات الجامعية ,سنة 1995.ص65.3333

وقيل يقطعها من ماله ويفصل بينها وبين ماله ,وفصل عن بلد كذا يفصل فصولا.

ففصل يكون لازما وواقعا ,وإذا كان واقعا فمصدره الفصل ,وإذا كان لازما فمصدره الفُصُولُ[15]

وجاء في متن اللغة لأحمد رضا في مادة (ف ص ل)

فصل: فصلاً وفصالاً المولود عن الرضاع فطمه وفصلاً بين شيئين

فصلَ الشيء: بينه وجعله فصولا متمايزة والكتاب جعله فصولا.

والعقد: وضع بين كل لؤلؤتين خرزة.

فصل الخطاب: كلمة أما بعد[16]

أما الشريف على بن محمد الجرجاني في كتابه (التعريفات) نجده يعرف الفصل كما يلي:

الفصل: كلي يجمل على الشيء في جواب أي شيء هو في جوهره ,كالناطق والحساس فالكلي يشمل سائر الكليات ,,بقولنا يحمل على الشيء في جواب أي شيء هو يخرج النوع والجنس والعرض العام لأن النوع والجنس يقالان في جواب ما هو لا جواب أي شيء ,أما العرض لا يقال في الجواب أصلا ,وبقولنا في جوهره يخرج الخاصة لأنها وإن كانت مميزة للشيء لكن لا في جوهره وذاته ,وهو قريب أن ميزه عن مشاركاته الجنس البعيد كالإحساس للإنسان.

والفصل في اصطلاح أهل المعاني ترك عطف بعض الجمل في بعض حروفه ,والفصل قطعة من الباب مستقلة بنفسها منفصلة عمل سواها[17].

عموما لقد ذكرنا في تعريفاتنا لكلمة الفصل دون الكلمات الأخرى التي جاءت في العنوان لأن كلمة (حكايات) ستعرف في مواضع لاحقة أما كلمة (الأربعة) فهي واضحة لا تحتاج إلى تعريف فهي تشكل مرتبة من مراتب الأعداد أو بالأحرى هي عدد.

ورواية: حكايات الفصول الأربعة ؛هي سيرة حياة–رفعت القباني– والتي اضطر لكتابتها ,بعد أن حبس في شقته –بالطابق الثاني عشر– لتعطل المصعد:

---

(15) ابن منظور ,لسان العرب ,ج11 ,ص524.

(16) أحمد رضا ,متن اللغة ,م1 ,منشورات دار المكتبة (بيروت) ,سنة1958 ,ص418.

(17) الشريف علي بن محمد الجرجاني ,التعريفات ,دار الكتب العلمية ,بيروت (لبنان) ,سنة 1995 ,ص167.

«...تشرد عيناك في تلاقي البنايات والسماء والأفق....

شمس الضحى تصبغ الواجهات والأسطح والمدى ,أسراب الطير تلتمع في وهج الأشعة كنثار الفضة ,تحط على الأمواج ,تلتقط الأسماء ,ثم تعاود الطيران. الفلوكة الصغيرة تتمايل وهي تجر الطراحة في عومها المتباطئ ,أصداء إيقاع الأمواج تنداح على الشاطئ ,أصوات الطريق شاحبة من وراء النافذة الزجاجية المغلقة....

حين ترامى صوت من الطوابق التحتية: المصعد معطل ,اصطدام كل ما أعددت له نفسك بحائط مسدود ,لم تعد تملك التصرف الذي يصلك بالأماكن التي كنت تعد نفسك للذهاب إليها في داخل المدينة ,مقهى التريانون ,مكتبة دار المعارف بالمنشية ,مبنى الغرفة التجارية ,.....الصعود إلى الطابق الثاني عشر ,لم يعد متاحا منذ ذلك المساء الذي ارتميت فيه –بثياب الخروج– على أول كرسي تصادفه في الصالة. خانك الجسد ,وتهيأ للسقوط.....»[18].

ومن البداية يدخلنا –الكاتب– في الحدث ,الذي كبل حرية الراوي ,جعله يمكث في شقته ,يتأمل حياته الفاتنة ,بكل ما فيها ...وينثر بقلمه–ما يعنيه من وهن الشيخوخة ورؤيته للعجز والموت.....

«...لم تعد تجلس إلى مكتبك ,أو تتحرك من موضعك ,إلا بجهد تشعر به وإن حاولت إخفاؤه كأنك تداري ما يجب ألا يعرفه الآخرون....»[19].

ثم أخذ يحدد معالم الشقة –ببراعته المعهودة في وصف المكان– :«أدهشك موقعها المطل في الطابق الثاني عشر على شبه جزيرة الإسكندرية ,البحر من الجهات الثلاث والكورنيش والبيوت والجوامع والساحات والشوارع والأسواق..... اكتفيت –في الأيام التالية– بالنظرة الخاطفة السريعة ,ثم الفت المشاهد دون أن تشعر بالدوار ,أو الميل إلى إلقاء نفسك ,أو تغادر موقعك...»[20].

---

[18] محمد جبريل ,الفصول الأربعة ,ص13–14.

[19] المصدر نفسه ,ص14.

[20] المصدر نفسه ,ص16.

ويسرد الراوي علاقاته المختلفة بالأصدقاء .. كيفية تعرفه على زوجته ,الخلافات في الرأي مع أولاده ,والهوة بين الأجيال: رضوخه لرغبة ابنته إيناس ,والزواج من زميلها ياسر ,رغم اعتراضه على ذلك:

«–زوجتك ابنتي !

قال بهجت عبد المنعم العبارة ,ويدك في يده تحت المنديل الأبيض– وأنا قبلت»[21].

وهجرة ابنه هاني ,وعدم الالتفات إلى نصائحه بعدم السفر ,والبحث عن فرصة عمل أخرى.

«قال هاني :

–حصلت على شهادة التجنيد مقابل حصولي على بكالوريوس التجارة...ثم في لهجة باترة:

–من حقي الآن أن أرحل!

كان قد عرف البلد الذي يهاجر إليه ,وأنهى كل أوراقه ,الموعد وحده هو ما أبلغنا به ,تستطيعون وداعي على باب الشقة ,أو في المطار....»[22].

ولقد بث في ثنايا الرواية ,لمسات سياسية خاطفة ؛ولكنها دالة:«ولدت بعد عام من ثورة 1919م ,وكنت في السابعة حين توفي سعد زغلول ,أحدث تطورات الفترة تأثيراتها في نفسك. الوفد الحزب...ثم تبدلت المشاعر بمعارك الزعامات وإلغاء دستور 1923 ,والقمصان الزرقاء ,والقمصان الخضراء ,والقمصان الصفراء ,وتزييف الانتخابات ,وخيانات الأحزاب ,والأزمة الاقتصادية ,وتدخل قصر الدبارة ,والحرب العالمية الثانية ,وحادثة 4 فبراير ,وحزب فلسطين ,ومعارك القناة ,وثورة يوليو ,وعدوان 1956 ,ونكسة 1967....»[23].

لقد نجح الكاتب في التعبير عن خلجات –الراوي– وما تعتمل الشخصية من مشاعر: «زاد إحساسك بالوحدة ,غلبك التأثر ,تمنيت لو تذهب إلى مكان بعيد ,يخلو من البشر

---

[21] المصدر نفسه ,ص29.

[22] المصدر نفسه ,ص59.

[23] المصدر نفسه ,ص48–49.

تماما ,تتمدد على رمال الشاطئ ,تأثر الأمواج تغطيك ,تغسلك ,تنحسر تعود لتغطيك ,وتغسلك إلى ما نهاية.

تضيء النور ,وتعيد تأمل ما حولك: الأثاث السائر ,المكتبة ,التلفزيون ,النوافذ ,الشرفات....

تنظر –بآلية– إلى ساعة الحائط ,تحت إفريز السقف. الحادية عشرة وخمسة عشرة دقيقة. أكثر من ساعة ولم تذهب للتبول....»[24].

العنوان "حكايات الفصول الأربعة" جاء مرآة عاكسة لتلك الفصول التي مر بها "رفعت القباني" بطل الرواية في حياته ,فالكاتب جعلنا نعيش تلك الأحداث التي ميزت السيرة الذاتية للبطل ,جعلنا نقف على أهم محطاته ,بدءا بربيع العمر ,أين يعيش رفعت أحلى أيام عمره وأجملها ,لأنه فيها درس واشتغل وعاش قصة حب مع زوجته رئيفة ثم تزوج بها ,وأنجبا طفلين وطفلة ,فكانت أحلى اللحظات ,وأزهاها ,تماما كزهر الربيع تلونه الأفراح ولعب الأطفال وحب الزوجة وعطفها ,في ربيع العمر كان الجسم قويا ,قادرا على الانتقال وتحمل المشاق والصعاب ,القلب كان كبيرا ,يسع كل الهموم والمشاكل ,وكان وكان...

لكن الربيع لا يدوم ,فسرعان ما يأتي الصيف فتتأزم الأمور وتزداد الحرارة فتتفرق العائلة وتغادر السعادة منزل "رفعت القباني" بسفر ابنه إلى الخارج ,بحثا عن العمل ,وزواج ابنته إيناس من شخص يرفضه ,فهو قبل في نهاية المطاف ,لإرضائها فقط ,والابن الآخر الذي يغرق في بحر السرقة والمخدرات والتهريب ,وما يلبث الخريف حتى تتساقط أوراقه وتهب عواصفه حاملة معها نهاية حزينة ,فتموت "رئيفة" زوجته ,ذات يوم وهما يسيران معا في احد الشوارع العامة ,وتقدمت السنون وأصبح "رفعت" مريضا يحس بالتعب والإرهاق والضجر من كل شيء ,إنه عالم الشيخوخة الذي يدخله من بابه الواسع ,وبدون جواز سفر ,فالإنسان لا يشعر أبدا بالأيام الجميلة كيف تنقضي ولا يشعر بالجسد كيف يتعب ويشيخ ,ويعجز عن أداء وظائف عديدة ,ذلك هو خريف العمر وما أصعبه من خريف ,تضيع فيه الأحلام وتنكسر الأشياء الجميلة ,ويصبح العالم مظلما كئيبا ,لا حياة فيه ولا نفس ,معلنا نهايته ليأتي بعده شتاء العمر إن صح القول وهو

[24] المصدر نفسه ,ص101.

نهاية المطاف ,الموت المحتوم ,أين أصبح "رفعت" أسير غرفته وذكرياته وأحزانه ,يعيش في الظلام. أين الأحباب؟ أين ضحكة الأولاد؟ أين أقدامك التي تصعد السلم آلاف المرات؟ وأين؟ ...وأين؟

كل شيء رحل مع ربيع العمر ,وما تبقى أخذه الخريف وإن بقي شيء آخر يقدمه شتاء العمر فهو الوحدة القاتلة والموت المحتوم والشيخوخة المرعبة فلم يبق شيء سوى عظام هرمة وجسد هامد لا يقوى على فعل شيء ,إنه شبح الشيخوخة الذي يطاردنا في آخر أيام عمرنا ,وإن كنا اليوم شبانا نتقد حيوية ,فإن غد آت ,والشيخوخة آتية لا محالة.

5/ رواية حكايات وهوامش من حياة المبتلى:

5-1-سيميائية العنوان:

انقسم العنوان في الرواية إلى قسمين: حيث برز القسم الأول على ظهر الغلاف (العنوان الرئيسي) أما القسم الثاني فاحتل مكانة في متن الرواية.

كما احتوت الرواية على مجموعة من العناوين الفرعية ,اشتملت على ثلاث عشر عنوانا ,وكل واحد منها منفصل عن الآخر ,لكن في المضمون هناك علاقة تربطهما مع بعضها البعض.

والعنوان الرئيسي هو بمثابة سؤال إشكالي ,والنص إجابة على هذا الإشكال.

وعنوان الرواية "حكايات وهوامش من الحياة" جملة مفخخ منمق.

وكما هو معروف لدى القارئ أن العنوان يعلن عن طبيعة النص ومن ثمة يعلن على نوع القراءة التي يتطلبها هذا النص.

ومن خلال هذا العنوان نحاول الدخول داخل هذه العمارة والغوص فيها بواسطة تحليل سيميائي للعنوان الرئيس ثم العناوين الفرعية.

بواسطة الوقوف على المعنى المعجمي للكلمات المكونة للعنوان الرئيسي والعناوين الفرعية ,ثم محاولة معرفة الدلالة الكامنة خلف هذه العناوين.

جاء في متن اللغة في مادة (ح ك م):

«حكي: حكاية الشيء: أتى بمثله وعلى صفته ,وعند الحديث نقله كما هو "وحكَى حكايةً" لغة: فهو حاكٍ للحديث ,والحديث محْكي ومحكمو ,وفلانا حكاه وشابهه وفعل فعله أو قال قوله ساء»[25].

«حكي: حكي العقدة: شدها

لغة في الهمز ,وعليهم غلبهم

اِحتكى أمره: استحكم. وما احْتكَى في صدري أي ما وقع فيه.

حاكاه: ماثله وشابهه وجرى على مثل فعله أو قوله امرأة حَكْيٌ نمامةٌ»[26] .

«هَمَشَ: وهَمِشَ: هَمْشًا:

أكثر الكلام في غير صواب ,هامش منه عاجله في الأكل. تهامشوا: دخل بعضهم في بعض وتحركوا ,والهمش "مصدر" الجمع ,والهِمَش: السريع العمل بأصابعه. والهَمْشة: الكلام والحركة.

الهامش: حاشية الكتاب "مولّد"

الهمش: والحديث من النساء التي تهمش الكلام وتُجلب»[27].

«من: حرف جر خافض للابتداء نحو: سرت من الشام ,وللتبحيص ,وهي التي تسد مسدها بعض ,نحو: أخذت من الدراهم.

ولبيان الجنس نحو: ما يفتح الله للناس من رحمة ؛ولله ذرّك من بطل وكثيرا ما تقع بعد ما ومهما لفرط إبهامها ,وللتعليل نحو: فعلت ذلك من أجلك»[28].

وجاء في مادة (ح ي ت)

الحياة: قوة النمو ,وقوة الحس ,وقوة العقل والشعور[29]

«والحياة هي نقيض الموت والمنفعة ,يقال: ليس لفلان حياة أي ليس عنده نفع ولا خير.

---

[25] أحمد رضا ,معجم متن اللغة ,م2 ,منشورات مكتبة الحياة لبنان ,1958 ,ص141.

[26] المرجع نفسه ,ص141.

[27] أحمد رضا ,معجم متن اللغة ,ص663.

[28] المرجع نفسه ,ص354.

[29] المرجع نفسه ,ص211.

الحياة الطيبة: الرزق الحلال أو الجنة»[30]

وجاء في مادة (ب ل ت)

«بَلَتَ. بَلْتًا. الكلام: فصله تفصيلا.

ويمينًا: حلفها.

بَلُتَ: فَصُحَ ولَبُبَ»[31].

هذا عن المعنى المعجمي ,أما عن الدلالة أو المعاني الخفية التي يمكن أن يعلن عنها هذا العنوان نقول "رواية حكايات وهوامش من حياة المبتلى" ,عندما نقرأ الرواية نجدها مليئة بأشكال الحزن والقلق والمآسي ,هذه الأحاسيس التي تطاردنا دوما في حياتنا .

بدأت رواية "حكايات وهوامش من حياة المبتلى" بالتمني كما أنها ختمت بنفس الغرض.

حيث تدور الأحداث حول معاناة شخص أراد أن يحافظ على بلاده والاستقرار فيها والمحافظة على الأجيال الأخرى. وأن لا يغادر بلاده مهما كانت الأحوال ومهما ساءت الظروف وقست عليه الأيام ,ومن ثمة تبدأ لحظات البؤس والشقاء.

فالرواية بدأت بأمثلة شعبية كانت بعضهاعبارة عن نصائح من والده: "يا داري يا ستراه عاري"

فكان مثال شعبي يفهمه العام والخاص ,المثقف وغير المثقف ,وكأن الرواية موجهة للجميع ,وهذا ما نجده من كثير من الروايات.

وهذه الرواية تسرد لنا حكاية شخص قست عليه الأيام وظروف الحياة ,وكم تعذب في حياته رغم الفقر والقهر وسوء الأحوال. إلا أنه لم يغادر بلاده وظل فيها وتمكن في البداية من وضع أسس لها. وهناك ما يثبت ذلك من الرواية من خلال سؤال أمه له "إن كان سيكمل خطوات زواجه من ابنة عمه سلسبيل"[32].

وبعد أن تمكن هذا الشاب "صابر" من الاستقرار كانت له بنت عم تدعى "سلسبيل" ,فتزوج بها. كما أنه بنى بنفسه الغرفة التي تزوج فيها وكان يعتمد على نفسه في كل

---

[30] المرجع نفسه ,ص211.

[31] المرجع نفسه ,ص331.

[32] محمد جبريل ,حكايات وهوامش من حياة المبتلى ,الهيئة العامة لقصور الثقافة ,نوفمبر 1996 ,ص7.

الأحوال ويرفض حتى مساعدة أقرب الناس إليه زوجته ,لكن مع توالي الأيام وبدء ظهور التعب بدا يقتنع "صابر" بمساعدة "سلسبيل" مع أنها كانت ضعيفة. فعملا على خدمة الأرض وزرعوها واستفادوا منها ,وهكذا أصبح الخير يكفي ويزيد كما ورد في الرواية "دوام الحال على المحال"[33].

وهنا تلمح آثارا لتلك الصعوبة التي ظهرت في بداية الأمر ,لما بذلوه من جهد مادي ومعنوي. هذا بعد أن تعرض لقوافله قطاع الطرق أثناء رحلاتهم في طريق الحجاز.

فلقد مرت الحياة بين "صابر" و"سلسبيل" في البداية هادئة هانئة في ضحك وأغاني.

إلا أن الأيام تدور وتعود عليهم بالسوء والقلق والحيرة على ما كانوا فيه.

وبدأ خلالها الظلام يسود حياتهما كما مثل ذلك في "السحابة السوداء التي تحجب ضوء الشمس"[34].

وهكذا هبط المرض على "صابر" ولزم الفراش ,وبدت "سلسبيل" فاقدة للحيلة قلقة تتجول بين الشوارع باحثة عن طريق لمعالجة "صابر" ,تسأل الطبيب والمنجم والساحر ,وكل من تلتقي به تحكي له همها وتسأله إن كان هناك دواء لعلاج "صابر". باعت كل ما تملك لديها من أجل الإنفاق على علاجه.

لكن الأطباء في كل مرة يفشلون في التعرف على بواعث مرضه. ولم يبق "لسلسبيل" شيء تبيعه لعلاجه ما عدا الخلخال الذي أهداه لها "صابر" في أيام الخوالي ,فباعته ورغم ذلك لم يشف ,ومع مرور الأيام صارح الطبيب "سلسبيل" بكل شيء. فقلقت ثم استعاذت بالله من الشيطان الرجيم وذهبت لتطوف بين الأضرحة والأولياء وتنذر النذور ,لأنه لم يبق لها حيلة أخرى غيرهم ,ثم التمست الرقى والتعاويذ والرقص ,وبعدها غادرت بيتها وتنازلت عن كل شيء ؛فكان همها الوحيد علاج "صابر".

وبينما هي تبحث هنا وهناك التقت بطبيب آخر فذهبت إليه وحكت له عن مرض "صابر" بعد كل تلك المعاناة ,فطلب منها أن تحضره ,ولما أحضرت "سلسبيل" "صابر"

---

[33] المصدر السابق ,ص08.

[34] المصدر السابق ,ص09.

للطبيب سأله الطبيب عن أمنيته في الحياة فأجابه كما ورد في الرواية "الذهاب إلى بلاد الحجاز"[35].

فاكتشف الطبيب عندها سبب مرضه وهمومه عندما قال له بأنه سوف يأتي اليوم وتذهب فيه إلى الحجاز.

وهكذا تحسنت حالة "صابر" بأمنيته الذهاب إلى الحجاز.

أما العناوين الفرعية فجاءت مقسمة إلى "13" ثلاثة عشر عنوانا ,وكأنها فصولا مجزأة يفصل بينها بعنوان يخالف العنوان الذي قبله ,لكنه يطرح مشكلة تبدأ بالألم وتنتهي بالقلق وكأنها مفارقة ,ثم تأتي صفحة بيضاء فارغة ليس مكتوب عليها أي شيء وكأنها فصل بين هذا العنوان والعنوان الذي بعده.

كان العنوان الفرعي لرواية "حكايات فات أوان روايتها" مرتبطا بالعنوان الرئيس حيث نجده يشتركان من حيث الشكل في جملة حكايات وهذا الوجود ,دليل على الارتباط بين العناوين.

من خلال قراءة الرواية نلاحظ أن هناك شيء فات ومضى من خلال مضمون الرواية "غابت الشمس" [36] حيث لما يأتي الصباح يشرق اليوم من جديد.

فيما نجد الشمس تمضي وتفوت في آخر اليوم ,وهذا دليل على الغياب بدءا من بظهور الظلام والسواد.

تدور أحداث هذا الجزء حول طائر خلف بيضة ,فلوحظت هذه البيضة من طرف عبد المجيد عنتر ,راشد عثمان ,وزكي عبد الحليم فأرادوا الاقتراب من البيضة بعد مغادرة الطائر ,ولما قرروا الاقتراب من البيضة ظهر هناك غبار من طرف الطائر فرجعوا ,وبدءوا يتحاورون مع بعضهم حول البيضة ويطرحون أسئلة ,وهكذا تعالت أصوات من مختلف المناطق والبيوت والمقاهي والدكاكين...الخ ,لكن همهم كان التصرف قبل فقس البيضة ,وهكذا طال النقاش والأخذ والرد والرأي المخالف وتبادل الاتهامات ,حتى هبط الطائر ذات ليلة بجناحيه وطال رقاده على البيضة.

أدركت الجماعة أن أوان فقس البيضة قد حان.

---

[35] المصدر السابق ,ص14.

[36] المصدر السابق ,ص19.

فكل شيء في وقته له بداية ونهاية ,يمر بسعادة كما يمر بحزن.

إلا أن القلق والحيرة يسبقان الإنسان دوما.

والعنوان الفرعي "المدينة": تدور أحداث هذا الجزء حول حكاية المدينة القديمة ,وهـذا ما خصصه في نهاية المطاف حين كان يدعو إلى التراث ,كما خص بها الكبار وثبت ذلك بقوله "العيش في المدينة القديمة...لم يمنعه أحد"[37] .

وهكذا قبل أن ينتهي النهار كانت المدينة قد خلت وكأنه حل بها السواد من جديد.

و رجعوا إلى البداية التي هي مقر سكناهم ,حيث كانوا فيها يعملون ويأكلون ويتبادلون فيها كل ما فيها من بهو وفرح ,وبهذا يعيدون الأمل والحياة من جديد.

وكذلك عنوان "الخصيبي" هذا الجزء في بدايته بداية مؤلمة حزينة ,تروي له في البداية عن الموت "مات أبوك"[38] هذا دلالة على الحزن.

"مقتل الأمير الجميل": يرمز هذا إلى وجود أمير يعيش في الغابة منذ طفولته ,حتى أنه تعلق بها إلى درجة عدم التخلي عنها مهما بدت الظروف. إلا أن أمه كانت تحاول دائمـا معه للتخلي عن هذه الغابة ,حتى لا يلقى ما لاقاه لوالده ويقتل ,إلا أن الأمير كان مصـرا على البقاء. فذات يوم بدل الحاكم الذي كان يحكم الغابة بحاكم آخـر ,فـذهبت لـه أمـه وترجته بأن يترك ابنها في تلك الغابة ,فقبل الحاكم ولكنه بقي يراقب ذلك الأمير وأصـبح همه الذي يشغله لكي يدبر له مكيدة يقتله بها.

لأن الأمير كانت نزهته الكبرى مع الحيوانات يفرح معهم ويتبادل الأحاسيس معهم.

حتى جاءت الساعة وجرى حوار فيها بين الأمير والحاكم وانتهت القصة بموت الأميـر.

رغم أن الأم كانت دوما في إلحاح مع ابنها في تحذيره لكن دون جدوى.

وبهذا أصاب الأمير ما أصاب والده (القتل) ,فبدت الحيوانات حزينة والطيـور تتـأثر "حتى الشمس كانت في وقت المغيب"[39] كما ورد في الرواية.

والعنوان "المحتسب": من خلال القصة نجد هناك حوار يدور بين السلطان ذو المكـان العالي والرفعة وصاحب السمو ,فيما نجد معه رجل بسيط يشتغل محاسب ,فكـان هنـاك

---

[37] المصدر السابق,ص33.

[38] المصدر السابق ,ص37.

[39] المصدر السابق ,ص49.

حوار بينهما نظرا لعدم إعجاب السلطان بالمحاسب ,رغم مكانة السلطان إلا أنه يراعي حقوق الناس رغم مركزه مكانته العلمية عكس المحاسب الذي كان ينظر إلى الناس بحسابهم "فكان يحاسب الناس ولا يحاسب نفسه" مع أن الطريق الذي يمشي فيه خاطئ.

على الرغم من كل هذا نجد نهاية القصة كمثل القصص التي سبقتها والقصص الآتية. فيها ظلم ومعاناة ,وحيرة في نهاية المطاف دلالة على ما مر به الإنسان.

"أصداء": مما يلفت الانتباه أن هناك صوتا قويا خفيا يصل إلى المدى البعيد ,حتى أن العنوان يروي قصة أن الصوت يختلف عن الجسد عند سماع الصوت ,وكأنه شاب في أول العمر صوت سلطان غمه الشيب.

وتنتهي بتساؤل وتعجب وكأن المحتسب والأصداء موضوعان مترابطان ,إلا أن لكل منهم موضوع خاص به.

فيما نجد "الزئير" من الصوت نعرف أنه صوت أسد بدون التطلع إلى قراءة القصة وبأن هذا الموضوع يتصف بالخشونة والقوة وهذا من صفات الأسد.

لكن حين الغوص في مضمون هذا الجزء نجده يشبه السلطان في قوته وجبروته بالأسد ,فشبه السلطان أو الحاكم بالأسد ,والرعية بالحيوانات التي يسيطر عليها الأسد نظرا لخوفهم منه.

فبعد أن كان هو حارس الغابة (ملك الشعب) الكل يخافه ويكون في خدمته ,حتى الذي لا يخاف منه يعمل على تجنب المعاقبة وهكذا أصبح يبدو أن الرعية وكأنها ضده لا تتحرك ولا ترد عليه رغم زئيره العالي. حتى النمر الذي كان يخدمه أصبح ضده وهكذا توالت عليه.

من خلال هذا الزئير نجد العنوان يتماشى مع أحداث القصة كما أن الروايات متقاربة في الصفحات فلا تتعدى الصفحتان أو الثلاثة.

"النبوءة": من خلال هذا نجد أن هناك من يدعي النبوءة ,أي يتنبأ بما سيحدث. فهو حوار يدور بين منجم يدعي النبوءة وبين السلطان الذي وقف موقف المحتار. فذات يوم ذهب منجم إلى السلطان فالتقى به ولما رآه قال له: أحذرك من أعوانك بأنهم سوف يقتلونك ,لكن السلطان لم يهتم بذلك ,فرجع إليه مرة أخرى فدخل الشك للسلطان فاستدعى في إحدى الأيام أحد السحرة وحكى له ما قاله المنجم ,وهذا أصبح الساحر يفعل ما يفعل

من أعماله. ورغم ذلك بقي المنجم يتردد في كل مرة على السلطان ويحذره. إلى أنه حان موعد موت السلطان فطعنه أحد أعوانه.

وكانت عند ذلك نهاية حزينة ,فالعنوان خدم المضمون وتماشى مع أحداثه.

"شاب من القرية البعيدة": تروي هذه الأحداث أن هناك شاب أتى من قرية بعيدة لا يعرف المكان الذي وصل إليه فالتقى بقائد الجند وكان ذلك الشاب يتصف بالقوة محبا للعمل نظرا لقوة عضلاته وهدوء نفسه. وعندما جرى الحوار بينهما وتبادل الكلام فأسكنه عنده ,ثم بعد ذلك نقله إلى المدينة وعلمه أساليب القتال من أجل الحرب على الشعب ,وهكذا أصبح الشعب كله يحبه.

وذات يوم خطر في بال قائد الجند أنه هناك من يترصد لمركب السلطان فأخبر عنه ذلك الشاب ,فقتله عندما كان في مخارج المدينة إلى السوق ,وهكذا كانت النهاية محزنة انتهت بقتل الأمير.

"حكاية من الزمن القادم": تروي أن هناك حوار بين مجموعة من الأشخاص البارزة داخل الرواية ,وكانوا متلازمون مع بعضهم من خلال هذا أدركنا أن ما بداخل الرواية ,كأنه هناك سرد لحياة ذاتية أي (سيرة ذاتية) ,فقال من خلالها شعرا:

"ما ثم إلا ما أراد فاترك همومك وانطرح
واترك شواغلك التي شغلت بها .....تسترح"[40]

بعدها تكلم عن نفسه وعن أمنياته وكأنها سيرة ذاتية ,ثم استدعى يوما من طرف "أبو خطوة" ,فأخذت الحيرة تنتابه ,ويفكر إلى أبعد الحدود ماذا سيقول له.

فسأله عن أحواله فأجابه بكل بساطة ,فأعجب به المعلم ,وأخبره أن ابتسامته التي كانت تشع أسنانه من خلالها بالبياض تعطيه تميزا خاصا ,وهكذا مرت الأيام.

ثم جرى حوار آخر بينهم حول البحر ,واقترح عليه إذا أسجنه ماذا يفعل ,فاختار وبدا يفكر هل إذا كان سيفعل ذلك ,فخاف وقبل طلوع الفجر عندما كان الكل نائما خرج ليغادر البيت ,فوجد "أبو خطوة" على النافذة يراقب البحر ,فسأله إلى أين؟ .فقال له: إلى البحر

[40] االمصدر السابق ,ص89.

للصيد. فطلب منه العودة ,فأخبره بأنه سوف يعود ذات يوم. فأخبره أنه لو لم يرجع الآن فلن يدخل بيته أبدا وهكذا أكمل كريقه إلى البحر.

وهكذا كانت نهاية القصة مظلمة على المعلم "أبو خطوة" لما غـادره الجنـدي. فهـي كالقصص الأخرى تنتهي بنهاية حزينة رغم ما مر به من سعادة ومرح في بداية الأمر.

"التراث ...لماذا نستلهم منه قصصنا؟":

بداية كانت بسؤال استفهامي ,وكأنه طلب للتفسير. في البداية رفض التراث العربي من الأدباء والأخذ بالنموذج الأوروبي ,ومن خلال هذا الشعار:

"فالتحيا الأصالة ,فالتحيا الإبداع ,فالتحيا التجديد والإصلاح"[41].

من خلال ما سبق وترابطه مع هذا يبدو وكأنه هناك تناقض ,فكيف ينادون بهذا الشعار وهم يريدون التخلي عنه ,فهذا تساؤل.

" فيوسف إدريس" في قصصه المصرية كانت تعبيرا عن الأصالة دون تقليد ,وغيرهم من الكتاب والروائيين كإحسان عبد القدوس ,وإبراهيم الورداني ,وأمين يوسف...وغيرهم.

ومن خلاله فإن المحافظة على التراث هو المحافظة على الأصالة ,ودعوة المدرسـة الحديثة إلى المثل الأوربي بهدف "تدمير الفاسد والرجعي وإقامة المقيد والضروري"[42]

ومن خلاله نصل إلى استخدام الحاضر والمحافظة على الأصالة فلا يمكن التخلي عن التراث ,فالتخلي عن التراث يعني التخلي عن الهوية.

كما كان التراث اجتهادا أساسيا في القصة القصيرة والرواية المصرية خاصة. وكمـا بدأت المحاولات في الإفادة من التراث بدءا "بجرجي زيدان" واستمرار في أعمال "خيري سعيد " و"طه حسين" ...وغيرهم إلى الأجيال الحالية.

إذن نتساءل: فما صلة التراث بالأصالة؟ لماذا ؟

"يتلازمان ليصبح في تقدير البعض شيئا واحدا؟!"[43].

فكانت الإجابة على ذلك أن الفنان يتمثل التراث بحيلة إلى ذاته.

---

[41] المصدر السابق ,ص99.

[42] المصدر السابق ,ص100.

[43] و[44] المصدر السابق ,ص104

يقول زكرياء إبراهيم: " إن العمل الأصيل يستبقي التراث ,ويلغيه في آن واحد ,أو أنه يحتفظ بهذا التراث بواسطة العمل على تجاوره"[44].

كما تناول تعريف للأصالة على أنها ليس مجرد العودة للقديم. كذلك الأصالة لا تكمن في واقعه التمايز أو الاختلاف بقدر ما تكمن في عملية الاستقلال الذاتي.

فالأصالة هي الإفادة من القديم وتضفيره في أعمال فنية تعبر عن الذات المبدعة ,كما أننا نقرأ التراث لنستلهمه لا لنبعده.

وتكمن العلاقة مع الغرب بأنها علاقة جدلية ,فكل جيل يحافظ على التراث ,كما يأخذ بالجديد حتى لا يكون هناك ركود.

وهكذا كان الجواب على العنوان باعتباره سؤال يحتاج إلى جواب.

من خلال هذه العناوين الفرعية ,نجد أن كل موضوع يخدم مل بداخل القصة ,باعتبار الرواية مجموعة قصصية تدور بواسطة حوار كما أن عنوان الرواية "حكايات وهوامش من حياة المبتلى" تخدم الرواية فالعنوان في ذاته جاء حوار داخل الرواية(المضمون).

وباعتبار الرواية مجموعة قصصية وكل قصة صغيرة تتناول موضوع معين إلا أن لها نفس النهاية "الظلام والحزن".

كما أن العناوين تفهم بمجرد قراءتها ,فلما نقرأ العنوان ونسقطه على الموضوع نجده يخدمه.

وعلى الرغم من بعد العناوين إلا أنها تتفق في المضمون .وكأنه هناك ترابط وانسجام ,وهذا حتى لا يقع القارئ في ضغط نفسي أو ملل.

وبالرغم من الغموض الذي كان بين أساطير القصص إلا أنها كانت مشوقة ,إضافة إلى أن كل موضوع كان منفصل عن الموضوع الذي من بعده.

وهذا هو الجديد في الروايات والذي جذب انتباه القارئ ليتناول المزيد ,ويفكك السطور.

وبالتالي على كل قارئ أنه عندما يقرأ قصة أو رواية لا بد أن ينظر إليها من جميع الزوايا ,القريبة منها والبعيدة حتى يكتشف كل الثغرات ,ويزداد تعلقه بها أكثر ,حتى يتحصل عل نتيجة في الأخير.

الفصل الثالث: سيميائية العنوان والغلاف في الروايات المختارة

أ/ رواية الأسوار:

1- توطئة: فرغ الروائي محمد جبريل من كتابة الأسوار في السابع عشر من فبراير عام سبعين وتسعمائة وألف ,ثم اختارتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ,في العاشر من ديسمبر عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف لتكون أول رواية تصدرها في السلسلة المعروفة باسم (روايات مختارة) ,بما تمتلكه الرواية من امتيازات فنية مفارقة للمنجز الروائي العربي في ذالك الوقت.

تقع الأسوار في حوالي عشرة ومائة صفحة من القطع الصغير ,منها خمس صفحات ملأى برسوم مفعمة بالدلالة على البأس والقهر ,وصفحة مملوءة باقتباسات مختلفة مصادرها.

تكتظ الراوية بالعديد من الشخصيات ذوي الأواسط المتباينة ,وتعالج ثنائية القهر والحرية وما ينبثق عنها من ثنائيات فرعية ,كالإيثار والثبات على المبدأ ,الخيانة وحب التضحية مناجل خلاص الآخرين ,وكلها ثنائيات ذات طابع إنساني ,سبق وأن عالجها روائيون عديد ون مثل نجيب محفوظ في "الكرنك".

والأسوار تفارق المألوف على نحو ما يظهر في عتبات دخولها ,وفيما ينشر فيها من جمل حوارية فصيحة ,شديدة التكثيف ,متوترة توتر نزلاء المعتقل الذي جرت على أرضه أغلب الأحداث ,إضافة إلى ما عول عليه الكاتب من تقنيات غير مألوفة ,كالوصل ,القطع ,الاسترجاع ,القص واللصق ,الناص ,الحوار ,بل إن استقبال الأسوار يباين في شروطه استقبال غيرها من الروايات ,لاسيما في ظل التعقيد الذي لحق بالحبكة نتيجة تعويل الكاتب على التقنيات السابق ذكرها.

2- سيميائية العنوان:

الأسوار هي جمع السور ,والسور في القضية: "هو اللفظ الدال على كمية أفراد الموضوع"[45] ,ويعد العنوان (الأسوار) أول عتبات الرواية وأول ما تقع عليه عين المتلقي ,وهو عنوان متعدد الوظائف ,فهو يعرف الرواية ,ويشير إلى محتواها ,ويمارس تأثيره

[45] الشريف علي بن محمد الجرجاني ,التعريفات ,دار الكتب العلمية ,بيروت ,لبنان ,سنة 1995 ,ص123.

الإغرائي في المتلقي ,بفضل ما يحف به من شفيف الظلال التي يمتزج فيها الغموض بالتشاؤم ,والترقب بالتفاؤل الحذر.

وللعنوان (الأسوار) طبيعة مرجعية ,فهو يحيل إلى النص ,كما أن النص يحيل إليه , خاصة حين يتقدم القارئ في القراءة حيث تطالعه تقارير سردية مثل:«الأسوار بقعة رملية أو مرصوفة ,العربات المتجهة إلى السوار تقذف بنفسها في الرمال الممتدة ,ربما صادفت حفرة عميقة ,تسلم نفسها إليها بلا قصد ,ينزل السائق ,ليرفعها النزلاء فيما بعد بأكتافهم.

الأسوار من بعيد مدينة أسطورية ,كل ما بداخلها معزول عن العالم الخارجي ,أبراج الحراسة ,في الأركان الأربعة ,مجهزة بالأنوار الكاشفة والمدافع الرشاشة ,الممنوعات ,تشمل كل شيء:الأقلام والأوراق ,والصحف والراديو ,والسجائر ,والكبريت ,والجبن ,والحلاوة ,والشاي ,والبن»[46].

وقد وضع محمد جبريل لروايته عنوانين ,أحدهما: (الأسوار) ,وهو العنوان الرئيسي الذي تقع عليه عين القارئ أول مرة على الغلاف الخارجي ,و الآخر: عنوان مصاحب للعنوان الرئيسي وهو (لحظات مصرية) وتقع عليه عين القارئ على الغلاف الداخلي , ومن ثم يصبح العنوان الداخلي (الأسوار لحظات مصرية). وترجع قيمة العنوان المصاحب إلى كونه مؤشرا على قيمة الزمان "اللحظة" داخل المكان "المعتقل" الذي يحجب بأسواره أنوار الحرية عن النزلاء ,هذا إلى جانب دلالته الزمنية على قيمة اللحظة في تحديد مصائر أولئك النزلاء الذين يقبعون خلف الأسوار ,لقد فقدت السنون والشهور والأيام والساعات والدقائق معانيها خلف الأسوار ,وأصبح الزمن يقاس باللحظة وما يصاحبها من تعذيب وعاهات.

إن العنوانين الرئيسي "الأسوار" والمصاحب "لحظات مصرية" يؤسسان عقد القراءة بين الكاتب والمتلقي ,وبتأثيرهما يكيف القارئ قراءته للنص ,وتأخذ توقعاته في تشكل عمن سوف يلتقي بهم داخل الأسوار من شخصيات تمارس القمع ,وأخرى مقموعة ,فيها المتسلق والانتهازي والخائن ,وفيها المقاوم الذي لا ينال من ثباته ترغيب أو ترهيب , فيها اللص والظالم والمظلوم ,فيها أحلام الحرية التي تخبو تحت تأثير الهوان واليأس ثم لا تلبث أن تشرق الشمس من جديد.

---

[46] محمد جبريل ,الأسوار ,دار مصر للطباعة ,سعيد جودة وشركاه ,ط2 ,ص63.

يشكل العنوان "الأسوار لحظات مصرية " أفق التوقع لدى القارئ , يحرضه على ارتقاب النهاية ,كالإفراج عن المعتقلين ,أو تحطيم الأسوار ,أو فضح الخائنين والانتهازيين والمنحرفين ,أو شفاء النفوس من أمراضها ,إلى غير ذلك من النهايات التي تغري باستمرار فعل القراءة ليكتشف القارئ عند عتبات الخروج من النص مدى صدق أو خيبة توقعاته.

كما أن للعنوان شاعرية لا يمكن إنكارها ,لأن هذه الشاعرية تعطينا بعدا تاريخيا ,وهي قادرة على التحليق فوق نثرية الحوار عن خيبة السجناء في نتيجة الاقتراع الخائنة ,وكأنما كانت هذه الخيبة التي وقعوا فيها نتيجة حبهم الشديد ,وصفاء قلوبهم وعدم توقعهم الخيانة من داخل الأسرار أو خارجها.

لقد عبر محمد جبريل في هذا النص عن وجهة نظره دون أن يقع في المباشرة أو التقريرية ,وأدان عصرا بأكمله ,وصور مواقف السلطة من أصحاب الفكر ,لأن هذا هو بداية الفساد الذي يدمر كل شيء ,كما أعطانا بعدا إنسانيا عاما ,عن تاريخية القهر في مصر ,واستمراره أحقابا طويلة.

كما ان الواقع هو الأرضية التي يتحرك عليها محمد جبريل في روايته "الأسوار" ومن ثم بطله "الأستاذ" ,والواقع يمد محمد جبريل ببذرة الأحداث والشخوص ,وعليه فهو يستنبتها في إطارها الفني ,إنه في مقالته "تجربة ذاتية " يذكر شهادته عن روايته الأولى وملابساتها التي قابلته يوما ,في بداية عمله الصحفي في جريدتي "الجهورية" و"المساء" فيقول:«يوما طلب مني الجويلي أن أجري حوارا مع شاب ارتكب ثلاث وعشرين حادثة سرقة سيارة ,قبل أن يكتشف أمره في الحادثة الرابعة والعشرين .وروى لي الشاب عن ظروفه الاجتماعية وعن أجواء المعتقل الذي قضى فيه أعواما ... حتى الإفراج عنه في ظروف بالغة القسوة والغرابة: فقد ألح نزلاء المعتقل في طلب الإفراج ,أرسلوا برقيات إلى المسئولين ,وأضربوا عن الطعام ,وتظاهروا وتشاجروا إلى حد الاقتتال مع حراس المعتقل ,ثم لجئوا إلى وسيلة بشعة لتأكيد مطلبهم في الإفراج ,أجروا قرعة في أسماء كل النزلاء ,واختير عشرة أسماء تعرض أصحابها للموت حرقا ,علانية في ساحة المعتقل ,وكانت

تلك الوسيلة القاسية هي الباعث لاهتمام المسئولين ,ودراسة حالتهم للإفراج عن غالبيتهم»[47].

إن الأحداث التي رواها محمد جبريل في مقالته هذه التي تشكل العمود الفقري للأحداث ,وإن اختلفت في النص الروائي بالطبع عن الواقع الحادث ,وليست الأحداث فقط هي التي استوحى بذرتها من الواقع ,ولكن بعض الشخصيات أيضا.

ومن هنا نستطيع القول أن العنوان الخارجي للرواية "الأسوار" جاء بالفعل عاكسا للرواية وللأحداث التي تجري في مضمونها بصورة حية وواقعية ,لأن لها صلة كبيرةبالواقع المعاش للشعب المصري في فترة زمنية معينة وقد تكون عاكسة للواقع السياسي العربي بصورة عامة. ومن هنا نستطيع القول أيضا أن الكاتب "محمد جبريل" هو ذلك الرجل الحائر المنشغل دوما بقضايا مجتمعه وبلده وهو يناضل في سبيلها دوما ,وهذا ما أكده الكاتب بقوله في شهادة منشورة مجلة فصول حيث يقول:«أنا مبدع مهموم سياسيا... إنها سدى اهتماماتي الشخصية والإبداعية في الوقت نفسه»[48].

جبريل المهموم سياسيا والمعني بتحقيق الحرية السياسية التي هي حق للمواطنين في المساهمة في حكم الدولة ...يوسع من مفهوم الحرية ,فالأهم عنده الكتابة عن الحرية. وهذا الهم السياسي يظهر نفسه في غالبية كتابات جبريل الإبداعية منه كتابه الأول "الملاك" والذي نشره ولم يتجاوز سن الكاتب آنذاك خمسة عشر عاما بعبارة:«أشياء ثلاثة كرست حياتي للدفاع عنها: الحرية والحق والخير ...وأرى أن التمتع بالحرية كفيل بأن يحقق الخير والحق... هل يمكن للإنسان أن يشعر بإنسانيته إلا إذا كان حرا! وهل يمكن للإنسان أن يتمتع بالحرية إذا لم يتمتع بها الآخرون ؟!»[49].

ويقول جبريل «إن لي موقفا من القضايا الإنسانية والاجتماعية وهذا الموقف يبين عن نفسه في أكثر من عمل قصصي وروائي ,ثمة وشيجة تربط روايتي "الأسوار" بروايه

---

[47] حسين علي محمد ,صورة الأستاذ في رواية الأسوار لمحمد جبريل ,موقع انترنت: www.arabicstory.net/forum/lofiuerson/index.php/t594.html

[48] زينب العسال ,جبريل ومعنى الحرية ,نشر في الموقع: www.amwague.net/amwague/19/shakhsyet/5.asp

[49] المرجع السابق.

"قاضي البهار ينزل البحر" في قضية التحقيق ,ربما تناولت الفكرة نفسها ,الموضوع ذاته في أكثر من عمل»[50].

يحمل إبداع محمد جبريل ملامح المفكر القلق ,فهو يبحث دوما عن كل ما هو حقيقي وإنساني في هذا العالم ,والإشارات الدالة التي بثها في نسج روايته وعلى لسان أبطاله وعبر اقتباسات معقدة تأكد على قيمة الفداء والتضحية ,وهي صلب علاقة المثقف بجماعته ومجتمعه.

هكذا نكون قد أوجدنا تلك العلاقة التي تربط رواية "الأسوار" بذلك الواقع المرير الذي تعيشه شعوب كثيرة في هذا العالم نتيجة للظلم والقهر الذي تمارسه السلطات الحاكمة.

ب/ حكايات الفصول الأربعة:

1- توطئة:

"...تكتب و تكتب ,وتكتب... شعور أقرب إلى الراحة ,تطمئن إليه بأنك تعبر عن نفسك ,وتستدعي الأفكار والذكريات والرؤى والخواطر التي لا رابط بينها إلا استعادة ما مضى من أعوام العمر.. تتلاحق الصور ,تتلاقى ,وتتعامد ,وتتشابك ,تختلط الملامح والشجن والتعبيرات والمشاعر ,تعود للمواقف والحكايات العجيبة ,يعود الأمل والقلق والخوف ,تحقق مما لا تقدر على تبيين ملامحه ,وتوشي الألوان والظلال قطع الفسيفساء ,في مساحة اللوحة.."[51].

هكذا ينهي الروائي المبدع "محمد جبريل "روايته –الجديدة– حكايتا الفصول الأربعة والتي تضاف إلى انجازه الإبداعي ,وكذلك إلى الإبداع الروائي العربي كله.

وهو بحق يأخذ الإبداع بجدية ودأب ,وهذا الأمر يتبينه المتتبع لمسيرته الأدبية حيث أن أعماله الأدبية تدهشك دوما بتطورها الملحوظ في تقنيات السرد ,وهو يتحدث كثيرا عن (حي بحري) والذي تدور فيه معظم إبداعاته الروائية حيث نجده يقول: «...الحنين

---

[50] المرجع السابق.

[51] محمد جبريل ,حكايات الفصول الأربعة ,دار البستاني للنشر والتوزيع ,سنة2004 ,ص139-140.

إلى المكان عندي..يتمثل في حنيني إلى (حي بحري) ,وهو الحي الذي ولـــدت فيـــه ,وإذا كنت أحيا –الآن– بعيدا عنه ,نتيجة لظروف عملي في القاهرة ,فإنه يحيـــا فـــي داخلـــي دوما....المعتقدات ,والعادات والتقاليد ,وحياة الصيادين ,وأضرحة الأولياء ,والحيـــاة فـــي الميناء ,وصيد العصاري ,وليال رمضان ,والموالد والأذكار ,وكل ما يجتذبني إلـــى ذلـــك الزمن القديم...أنا من المفتونين بالمكان المصري وقد تمنيـــت أن تتـــاح لـــي الفرصـــة نفسها....»[52].

لا تعدو أن تكون هذه القراءة سوى وقفات تأمل عند بعض الشخصيات ,الأحداث التـــي بثها الفنان المبدع بفرشاته ,العقبة بزخم المشاعر والإحساسات الجميلة في السرد الروائي ,المصاغ بحنكة ,وحذق وبراعة لا متناهية.

وعموما الموضوع الأساسي الذي أثاره الروائي في هـــذه الروايـــة هـــو موضـــوع الشيخوخة ,الموت التدريجي للقدرات البدنية ,صرع الجسد مع الموت الذي يؤذن بالمجيء ,مما يشغل الكاتب في مجمل عمله الروائي ,وخاصة في هذه الرواية ,لعل فـــي عنوانهـــا وحده ,"حكايات الفصول الأربعة" ما يشير إلى هذه الموضوعة ,ليست تلك فقـــط فصـــول السنة الأربعة ,بل هي أساسا فصول العمر الأربعة ,ليست فقط فصولا تمر بهـــا ســـنوات بطل أو شخص واحد –في متن الرواية– بل هي أيضا موزعة على شـــخوص الروايـــة بحذق وذكاء سردي ملحوظ ,من ربيع الصبا ,وعنفوان العمر إلى خريف التهاوي والإيذان بالسقوط ,ومنه إلى الشتاء الموحش القاحل.

ومن هذه الأرضية الخصبة انطلق "محمد جبريل" في رسم ملامح شخصيته البطلـــة وهو "رفعت القباني" وهو يمر بهذه الفصول وما مدى تأثير كل فصل في حياته وكيف أن حياته أصبحت مجرد فصول ,يمضي فصل ويليه الآخر ,وهكذا دواليك... فالعمر يمضي وكل شيء يمضي معه.

2- سيمياء العنوان:

العنوان "حكايات الفصول الأربعة"

---

[52] محمد جبريل وحكاية الفصول الأربعة ,نشرت في الموقع:
www.amwague.net/amwague/19/shakhsyet/10.asp

حكايات جمع حكاية (والحكاية هي "قصة الأحداث الماضية" إن الأمر يتعلق حسبما يذكر بنفست "بتقديم الوقائع الحادثة في لحظة ,بدون تدخل للمتكلم في القصة" ويضيف "على الكاتب أن يصور ما هو غريب في قصة الأحداث من تأملات ومقارنات وحكم ,وبصفة أوضح لا يكون هناك راو ,يتم عرض الأحداث باعتبارها وقعت كما تظهر في أفق الحكاية)[53].

ورد في لسان العرب لابن منظور:

فَصَلَ: خرج

والفصل: واحد الفصول

والفاصلة: التي في الحديث ,من أنفق نفقة فاصلة في سبيل الله فبسبعمائة ,وفي رواية فله من الأجر كذا ,تفسيرها في الحديث أنها التي فصلت بين إيمانه وكفره.

وقيل يقطعها من ماله ويفصل بينها وبين مال نفسه ,وفصل عن بلد كذا يفصل فصولا.

ففصل يكون لازما وواقعا ,وإذا كان واقعا فمصدره الفصل ,وإذا كان لازما فمصدره الفُصُولُ[54]

وجاء في متن اللغة لأحمد رضا في مادة (ف ص ل)

فصل: فصلاً وفصالاً المولود عن الرضاع فطمه وفصلاً بين شيئين

فصَلَ الشيء: بينه وجعله فصولا متمايزة والكتاب جعله فصولا.

والعقد: وضع بين كل لؤلؤتين خرزة.

فصل الخطاب: كلمة أما بعد[55]

أما الشريف على بن محمد الجرجاني في كتابه (التعريفات) نجده يعرف الفصل كما يلي:

الفصل: كلي يجمل على الشيء في جواب أي شيء هو في جوهره ,كالناطق والحساس فالكلي يشمل سائر الكليات ,,بقولنا يحمل على الشيء في جواب أي شيء هو يخرج النوع والجنس والعرض العام لأن النوع والجنس يقالان في جواب ما هو لا جواب أي

---

[53] دليلة مرسلي وآخرون ,مدخل إلى السيميوطيقا (نص–صورة) ,ترجمة عبد الحميد بورايو (جامعة تلمسان) ,ديوان المطبوعات الجامعية ,سنة 1995.

[54] ابن منظور ,لسان العرب ,ح11 ,ص524.

[55] أحمد رضا ,متن اللغة ,م1 ,منشورات دار المكتبة (بيروت) ,سنة1958 ,ص418.

شيء ,أما العرض لا يقال في الجواب أصلا ,وبقولنا في جوهره يخرج الخاصة لأنها وإن كانت مميزة للشيء لكن لا في جوهره وذاته ,وهو قريب أن ميزه عن مشاركاته الجنس البعيد كالإحساس للإنسان.

والفصل في اصطلاح أهل المعاني ترك عطف بعض الجمل في بعض حروفه ,والفصل قطعة من الباب مستقلة بنفسها منفصلة عمل سواها[56].

عموما لقد ذكرنا في تعريفاتنا لكلمة الفصل دون الكلمات الأخرى التي جاءت في العنوان لأن كلمة (حكايات) ستعرف في مواضع لاحقة أما كلمة (الأربعة) فهي واضحة لا تحتاج إلى تعريف فهي تشكل مرتبة من مراتب الأعداد أو بالأحرى هي عدد.

ورواية: حكايات الفصول الأربعة ؛هي سيرة حياة–رفعت القباني– والتي اضطر لكتابتها ,بعد أن حبس في شقته –بالطابق الثاني عشر– لتعطل المصعد:

«...تشرد عيناك في تلاقي البنايات والسماء والأفق....

شمس الضحى تصبغ الواجهات والأسطح والمدى ,أسراب الطير تلتمع في هوج الأشعة كنثار الفضة ,تحط على الأمواج ,تلتقط الأسماء ,ثم تعاود الطيران. الفلوكة الصغيرة تتمايل وهي تجر الطراحة في عومها المتباطئ ,أصداء إيقاع الأمواج تتداح على الشاطئ ,أصوات الطريق شاحبة من وراء النافذة الزجاجية المغلقة....

حين ترامى صوت من الطوابق التحتية: المصعد معطل ,اصطدام كل ما أعددت له نفسك بحائط مسدود ,لم تعد تملك التصرف الذي يصلك بالأماكن التي كنت تعد نفسك للذهاب إليها في داخل المدينة ,مقهى التريانون ,مكتبة دار المعارف بالمنشية ,مبنى الغرفة التجارية ,.....الصعود إلى الطابق الثاني عشر ,لم يعد متاحا منذ ذلك المساء الذي ارتميت فيه –بثياب الخروج– على أول كرسي تصادفه في الصالة. خانك الجسد ,وتهيأ للسقوط.....»[57].

---

[56] الشريف علي بن محمد الجرجاني ,التعريفات ,دار الكتب العلمية ,بيروت (لبنان) ,سنة 1995 ,ص167.

[57] محمد جبريل ,الفصول الأربعة ,ص13–14.

ومن البداية يدخلنا –الكاتب– في الحدث ,الذي كبل حرية الراوي ,جعله يمكث في شقته ,يتأمل حياته الفاتنة ,بكل ما فيها ...وينثر بقلمه–ما يعنيه من وهن الشيخوخة ورؤيته للعجز والموت.....

«...لم تعد تجلس إلى مكتبك ,أو تتحرك من موضعك ,إلا بجهد تشعر به وإن حاولت إخفاؤه كأنك تداري ما يجب ألا يعرفه الآخرون....»[58].

ثم أخذ يحدد معالم الشقة –ببراعته المعهودة في وصف المكان– :«أدهشك موقعها المطل في الطابق الثاني عشر على شبه جزيرة الإسكندرية ,البحر من الجهات الثلاث والكورنيش والبيوت والجوامع والساحات والشوارع والأسواق..... اكتفيت –في الأيام التالية– بالنظرة الخاطفة السريعة ,ثم الفت المشاهد دون أن تشعر بالدوار ,أو الميل إلى إلقاء نفسك ,أو تغادر موقعك...»[59].

ويسرد الراوي علاقاته المختلفة بالأصدقاء .. كيفية تعرفه على زوجته ,الخلافات في الرأي مع أولاده ,والهوة بين الأجيال: رضوخه لرغبة ابنته إيناس ,والزواج من زميلها ياسر ,رغم اعتراضه على ذلك:

«–زوجتك ابنتي !

قال بهجت عبد المنعم العبارة ,ويدك في يده تحت المنديل الأبيض– وأنا قبلت»[60].

وهجرة ابنه هاني ,وعدم الالتفات إلى نصائحه بعدم السفر ,والبحث عن فرصة عمل أخرى.

«قال هاني :

–حصلت على شهادة التجنيد مقابل حصولي على بكالوريوس التجارة...ثم في لهجة باترة:

–من حقي الآن أن أرحل!

كان قد عرف البلد الذي يهاجر إليه ,وأدهى كل أوراقه ,الموعد وحده هو ما أبلغنا به ,تستطيعون وداعي على باب الشقة ,أو في المطار....»[61].

---

[58] المرجع نفسه ,ص14.

[59] المرجع نفسه ,ص16.

[60] المرجع نفسه ,ص29.

ولقد بث في ثنايا الرواية ,لمسات سياسية خاطفة ؛ولكنها دالة:«ولدت بعد عام من ثورة 1919م ,وكنت في السابعة حين توفي سعد زغلول ,أحدث تطورات الفترة تأثيراتها في نفسك. الوفد الحزب...ثم تبدلت المشاعر بمعارك الزعامات وإلغاء دستور 1923 ,والقمصان الزرقاء ,والقمصان الخضراء ,والقمصان الصفراء ,وتزييف الانتخابات ,وخيانات الأحزاب ,والأزمة الاقتصادية ,وتدخل قصر الدبارة ,والحرب العالمية الثانية ,وحادثة 4 فبراير ,وحزب فلسطين ,ومعارك القناة ,وثورة يوليو ,وعدوان 1956 ,ونكسة 1967....»[62].

لقد نجح الكاتب في التعبير عن خلجات –الراوي– وما تعتمل الشخصية من مشاعر: «زاد إحساسك بالوحدة ,غلبك التأثر ,تمنيت لو تذهب إلى مكان بعيد ,يخلو من البشر تماما ,تتمدد على رمال الشاطئ ,تأثر الأمواج تغطيك ,تغسلك ,تنحسر تعود لتغطيك ,وتغسلك إلى ما نهاية.

تضيء النور ,وتعيد تأمل ما حولك: الأثاث السائر ,المكتبة ,التلفزيون ,النوافذ ,الشرفات....

تنظر –بآلية– إلى ساعة الحائط ,تحت إفريز السقف. الحادية عشرة وخمسة عشرة دقيقة. أكثر من ساعة ولم تذهب للتبول....»[63].

العنوان "حكايات الفصول الأربعة" جاء مرآة عاكسة لتلك الفصول التي مر بها "رفعت القباني" بطل الرواية في حياته ,فالكاتب جعلنا نعيش تلك الأحداث التي ميزت السيرة الذاتية للبطل ,جعلنا نقف على أهم محطاته ,بدءا بربيع العمر ,أين يعيش رفعت أحلى أيام عمره وأجملها ,لأنه فيها درس واشتغل وعاش قصة حب مع زوجته رئيفة ثم تزوج بها ,وأنجبا طفلين وطفلة ,فكانت أحلى اللحظات ,وأزهاها ,تماما كزهر الربيع تلونه الأفراح ولعب الأطفال وحب الزوجة وعطفها ,في ربيع العمر كان الجسم قويا ,قادرا على الانتقال وتحمل المشاق والصعاب ,القلب كان كبيرا ,يسع كل الهموم والمشاكل ,وكان وكان...

(61) المرجع نفسه ,ص59.

(62) المرجع نفسه ,ص48–49.

(63) المرجع نفسه ,ص101.

لكن الربيع لا يدوم ,فسرعان ما يأتي الصيف فتتأزم الأمور وتزداد الحرارة فتتفرق العائلة وتغادر السعادة منزل "رفعت القباني" بسفر ابنه إلى الخارج ,بحثا عن العمل ,وزواج ابنته إيناس من شخص يرفضه ,فهو قبل في نهاية المطاف ,لإرضائها فقط ,والابن الآخر الذي يغرق في بحر السرقة والمخدرات والتهريب ,وما يلبث الخريف حتى تتساقط أوراقه وتهب عواصفه حاملة معها نهاية حزينة ,فتموت "رئيفة" زوجته ,ذات يوم وهما يسيران معا في احد الشوارع العامة ,وتقدمت السنون وأصبح "رفعت" مريضا يحس بالتعب والإرهاق والضجر من كل شيء ,إنه عالم الشيخوخة الذي يدخله من بابه الواسع ,وبدون جواز سفر ,فالإنسان لا يشعر أبدا بالأيام الجميلة كيف تنقضي ولا يشعر بالجسد كيف يتعب ويشيخ ,ويعجز عن أداء وظائف عديدة ,ذلك هو خريف العمر وما أصعبه من خريف ,تضيع فيه الأحلام وتتكسر الأشياء الجميلة ,ويصبح العالم مظلما كئيبا ,لا حياة فيه ولا نفس ,معلنا نهايته ليأتي بعده شتاء العمر إن صح القول وهو نهاية المطاف ,الموت المحتوم ,أين أصبح "رفعت" أسير غرفته وذكرياته وأحزانه ,يعيش في الظلام. أين الأحباب؟ أين ضحكة الأولاد؟ أين أقدامك التي تصعد السلم آلاف المرات؟ وأين؟ ...وأين؟

كل شيء رحل مع ربيع العمر ,وما تبقى أخده الخريف وإن بقي شيء آخر يقدمه شتاء العمر فهو الوحدة القاتلة والموت المحتوم والشيخوخة المرعبة فلم يبق شيء سوى عظام هرمة وجسد هامد لا يقوى على فعل شيء ,إنه شبح الشيخوخة الذي يطاردنا في آخر أيام عمرنا ,وإن كنا اليوم شبانا نتقد حيوية ,فإن غد آت ,والشيخوخة آتية لا محالة.

جـ/ رواية حكايات وهوامش من حياة المبتلى:

1- سيميائية العنوان:

انقسم العنوان في الرواية إلى قسمين: حيث برز القسم الأول على ظهر الغلاف (العنوان الرئيسي) أما القسم الثاني فاحتل مكانة في متن الرواية.

كما احتوت الرواية على مجموعة من العناوين الفرعية ,اشتملت على ثلاث عشر عنوانا ,وكل واحد منها منفصل عن الآخر ,لكن في المضمون هناك علاقة تربطهما مع بعضها البعض.

والعنوان الرئيسي هو بمثابة سؤال إشكالي ,والنص إجابة على هذا الإشكال.

وعنوان الرواية "حكايات وهوامش من الحياة" جملة مفخخ منمق.

وكما هو معروف لدى القارئ أن العنوان يعلن عن طبيعة النص ومن ثمة يعلن على نوع القراءة التي يتطلبها هذا النص.

ومن خلال هذا العنوان نحاول الدخول داخل هذه العمارة والغوص فيها بواسطة تحليل سيميائي للعنوان الرئيس ثم العناوين الفرعية.

بواسطة الوقوف على المعنى المعجمي للكلمات المكونة للعنوان الرئيسي والعناوين الفرعية ,ثم محاولة معرفة الدلالة الكامنة خلف هذه العناوين.

جاء في متن اللغة في مادة (ح ك م):

«حكي: حكاية الشيء: أتى بمثله وعلى صفته ,وعند الحديث نقله كما هو "وحكَى حكايةً" لغة: فهو حاكٍ للحديث ,والحديث محْكي ومحكمو ,وفلانا حكاه وشابهه وفعل فعله أو قال قوله ساء»[64].

«حكي: حكي العقدة: شدها

لغة في الهمز ,وعليهم غلبهم

اِحتكى أمره: استحكم. وما احْتكَى في صدري أي ما وقع فيه.

حاكاه: ماثله وشابهه وجرى على مثل فعله أو قوله امرأة حَكْيٌ نمامةٌ»[65] .

«هَمَشَ: وهَمِشَ: هَمْشًا:

أكثر الكلام في غير صواب ,هامش منه عاجله في الأكل. تهامشوا: دخل بعضهم في بعض وتحركوا ,والهمش "مصدر" الجمع ,والهِمَش: السريع العمل بأصابعه. والهَمْشة: الكلام والحركة.

الهامش: حاشية الكتاب "مولّد"

الهمش: والحديث من النساء التي تهمش الكلام وتُجلب»[66].

«من: حرف جر خافض للابتداء نحو: سرت من الشام ,وللتبحيص ,وهي التي تسد مسدها بعض ,نحو: أخذت من الدراهم.

---

(64) أحمد رضا ,معجم متن اللغة ,م2 ,منشورات مكتبة الحياة لبنان ,1958 ,ص141.

(65) المرجع نفسه ,ص141.

(66) أحمد رضا ,معجم متن اللغة ,ص663.

ولبيان الجنس نحو: ما يفتح الله للناس من رحمة ؛ولله ذرّك من بطل وكثيرا ما تقع بعد ما ومهما لفرط إبهامها ,وللتعليل نحو: فعلت ذلك من أجلك»[67].

وجاء في مادة (ح ي ت)

الحياة: قوة النمو ,وقوة الحس ,وقوة العقل والشعور[68]

«والحياة هي نقيض الموت والمنفعة ,يقال: ليس لفلان حياة أي ليس عنده نفع ولا خير.

الحياة الطيبة: الرزق الحلال أو الجنة»[69]

وجاء في مادة (ب ل ت)

«بَلَتَ. بَلْتًا. الكلام: فصله تفصيلا.

ويمينًا: حلفها.

بَلُتَ: فَصُحَ ولَبُبَ»[70].

هذا عن المعنى المعجمي ,أما عن الدلالة أو المعاني الخفية التي يمكن أن يعلن عنها هذا العنوان نقول "رواية حكايات وهوامش من حياة المبتلى" ,عندما نقرأ الرواية نجدها مليئة بأشكال الحزن والقلق والمآسي ,هذه الأحاسيس التي تطاردنا دوما في حياتنا .

بدأت رواية "حكايات وهوامش من حياة المبتلى" بالتمني كما أنها ختمت بنفس الغرض.

حيث تدور الأحداث حول معاناة شخص أراد أن يحافظ على بلاده والاستقرار فيها والمحافظة على الأجيال الأخرى. وأن لا يغادر بلاده مهما كانت الأحوال ومهما ساءت الظروف وقست عليه الأيام ,ومن ثمة تبدأ لحظات البؤس والشقاء.

فالرواية بدأت بأمثلة شعبية كانت بعضهاعبارة عن نصائح من والده: "يا داري يا ستراه عاري"

فكان مثال شعبي يفهمه العام والخاص ,المثقف وغير المثقف ,وكأن الرواية موجهة للجميع ,وهذا ما نجده من كثير من الروايات.

---

[67] المرجع نفسه ,ص354.

[68] المرجع نفسه ,ص211.

[69] المرجع نفسه ,ص211.

[70] المرجع نفسه ,ص331.

وهذه الرواية تسرد لنا حكاية شخص قست عليه الأيام وظروف الحياة ,وكم تعذب في حياته رغم الفقر والقهر وسوء الأحوال. إلا أنه لم يغادر بلاده وظل فيها وتمكن في البداية من وضع أسس لها. وهناك ما يثبت ذلك من الرواية من خلال سؤال أمه لـــه "إن كـــان سيكمل خطوات زواجه من ابنة عمه سلسبيل"[71].

وبعد أن تمكن هذا الشاب "صابر" من الاستقرار كانت له بنت عم تـــدعى "سلســـبيل" ,فتزوج بها. كما أنه بنى بنفسه الغرفة التي تزوج فيها وكان يعتمد على نفسه فـــي كـــل الأحوال ويرفض حتى مساعدة أقرب الناس إليه زوجته ,لكن مع توالي الأيام وبدء ظهور التعب بدا يقتنع "صابر" بمساعدة "سلسبيل" مع أنها كانت ضعيفة. فعمـــلا علـــى خدمـــة الأرض وزرعوها واستفادوا منها ,وهكذا أصبح الخير يكفي ويزيد كما ورد في الروايـــة "دوام الحال على المحال"[72].

وهنا تلمح آثار لتلك الصعوبة التي ظهرت في بداية الأمر ,لما بذلوه من جهد مـــادي ومعنوي. هذا بعد أن تعرض لقوافله قطاع الطرق أثناء رحلاتهم في طريق الحجاز.

فلقد مرت الحياة بين "صابر" و"سلسبيل" في البداية هادئة هانئة في ضحك وأغاني.

إلا أن الأيام تدور وتعود عليهم بالسوء والقلق والحيرة على ما كانوا فيه.

وبدأ خلالها الظلام يسود حياتهما كما مثل ذلك في "السحابة السوداء التي تحجب ضـــوء الشمس"[73].

وهكذا هبط المرض على "صابر" ولزم الفراش ,وبدت "سلسبيل" فاقـــدة للحيلـــة قلقـــة تتجول بين الشوارع باحثة عن طريق لمعالجة "صابر" ,تسأل الطبيب والمنجم والســـاحر ,وكل من تلتقي به تحكي له همها وتسأله إن كان هناك دواء لعلاج "صابر". باعت كل ما تملك لديها من أجل الإنفاق على علاجه.

لكن الأطباء في كل مرة يفشلون في التعرف على بواعث مرضه. ولم يبق "لسلســـبيل" شيء تبيعه لعلاجه ما عدا الخلخال الذي أهداه لها "صابر" في أيام الخوالي ,فباعته ورغم

---

[71] محمد جبريل ,حكايات وهوامش من حياة المبتلى ,الهيئة العامة لقصور الثقافة ,نوفمبر 1996 ,ص7.

[72] المرجع السابق ,ص08.

[73] المرجع السابق ,ص09.

ذلك لم يشفى ,ومع مرور الأيام صارح الطبيب "سلسبيل" بكل شيء. فقلقت ثم استعاذت بالله من الشيطان الرجيم وذهبت لتطوف بين الأضرحة والأولياء وتنذر النذور ,لأنه لم يبق لها حيلة أخرى غيرهم ,ثم التمست الرقى والتعاويذ والرقص ,وبعدها غادرت بيتها وتنازلت عن كل شيء ؛فكان همها الوحيد علاج "صابر".

وبينما هي تبحث هنا وهناك التقت بطبيب آخر فذهبت إليه وحكت له عن مرض "صابر" بعد كل تلك المعاناة ,فطلب منها أن تحضره ,ولما أحضرت "سلسبيل" "صابر" للطبيب سأله الطبيب عن أمنيته في الحياة فأجابه كما ورد في الرواية "الذهاب إلى بلاد الحجاز "[74].

فاكتشف الطبيب عندها سبب مرضه وهمومه عندما قال له بأنه سوف يأتي اليوم وتذهب فيه إلى الحجاز.

وهكذا تحسنت حالة "صابر" بأمنيته الذهاب إلى الحجاز.

أما العناوين الفرعية جاءت مقسمة إلى "13" ثلاث عشر عنوانا ,وكأنها فصولا مجزأة يفصل بينها بعنوان يخالف العنوان الذي قبله ,لكنه يطرح مشكلة تبدأ بالألم وتنتهي بالقلق وكأنها مفارقة ,ثم تأتي صفحة بيضاء فارغة ليس مكتوب عليها أي شيء وكأنها فصل بين هذا العنوان والعنوان الذي بعده.

كان العنوان الفرعي لرواية "حكايات فات أوان روايتها" مرتبطا بالعنوان الرئيس حيث نجده يشتركان من حيث الشكل في جملة حكايات وهذا الوجود ,دليل على الارتباط بين العناوين.

من خلال قراءة الرواية نلاحظ أن هناك شيء فات ومضى من خلال مضمون الرواية "غابت الشمس" [75] حيث لما يأتي الصباح يشرق اليوم من جديد.

فيما نجد الشمس تمضي وتفوت في آخر اليوم ,وهذا دليل على الغياب بدءا من بظهور الظلام والسواد.

تدور أحداث هذا الجزء حول طائر خلف بيضة ,فلوحظت هذه البيضة من طرف عبد المجيد عنتر ,راشد عثمان ,وزكي عبد الحليم فأرادوا الاقتراب من البيضة بعد مغادرة

---

[74] المرجع السابق ,ص14.

[75] المرجع السابق ,ص19.

الطائر ,ولما قرروا الاقتراب من البيضة ظهر هناك غبار من طرف الطائر فرجعوا ,وبدءوا يتحاورون مع بعضهم حول البيضة ويطرحون أسئلة ,وهكذا تعالت أصوات من مختلف المناطق والبيوت والمقاهي والدكاكين...الخ ,لكن همهم كان التصرف قبل فقس البيضة ,وهكذا طال النقاش والأخذ والرد والرأي المخالف وتبادل الاتهامات ,حتى هبط الطائر ذات ليلة بجناحيه وطال رقاده على البيضة.

أدركت الجماعة أن أوان فقس البيضة قد حان.

فكل شيء في وقته له بداية ونهاية ,يمر بسعادة كما يمر بحزن.

إلا أن القلق والحيرة يسبقان الإنسان دوما.

والعنوان الفرعي "المدينة": تدور أحداث هذا الجزء حول حكاية المدينة القديمة ,وهذا ما خصصه في نهاية المطاف حين كان يدعو إلى التراث ,كما خص بها الكبار وثبت ذلك بقوله "العيش في المدينة القديمة...لم يمنعه أحد"[76] .

وهكذا قبل أن ينتهي النهار كانت المدينة قد خلت وكأنه حل بها السواد من جديد.

و رجعوا إلى البداية التي هي مقر سكناهم ,حيث كانوا فيها يعملون ويأكلون ويتبادلون فيها كل ما فيها من بهو وفرح ,وبهذا يعيدون الأمل والحياة من جديد.

وكذلك عنوان "الخصيبي" هذا الجزء في بدايته بداية مؤلمة حزينة ,تروي له في البداية عن الموت "مات أبوك"[77] هذا دلالة على الحزن.

"مقتل الأمير الجميل": يرمز هذا إلى وجود أمير يعيش في الغابة منذ طفولته ,حتى أنه تعلق بها إلى درجة عدم التخلي عنها مهما بدت الظروف. إلا أن أمه كانت تحاول دائما معه للتخلي عن هذه الغابة ,حتى لا يلقى ما لاقاه لوالده ويقتل ,إلا أن الأمير كان مصر على البقاء. فذات يوم بدل الحاكم الذي كان يحكم الغابة بحاكم آخر ,فذهبت له أمه وترجته بأن يترك ابنها في تلك الغابة ,فقبل الحاكم ولكنه بقي يراقب ذلك الأمير وأصبح همه الذي يشغله لكي يدبر له مكيدة يقتله بها.

لأن الأمير كانت نزهته الكبرى مع الحيوانات يفرح معهم ويتبادل الأحاسيس معهم.

---

[76] محمد جبريل ,حكايات وهوامش من حياة المبتلى,ص33.

[77] المرجع السابق ,ص37.

حتى جاءت الساعة وجرى حوار فيها بين الأمير والحاكم وانتهت القصة بموت الأمير. رغم أن الأم كانت دوما في إلحاح مع ابنها في تحذيره لكن دون جدوى.

وبهذا أصاب الأمير ما أصاب والده (القتل) ,فبدت الحيوانات حزينة والطيور تتأثر "حتى الشمس كانت في وقت المغيب"[78] كما ورد في الرواية.

والعنوان "المحتسب": من خلال القصة نجد هناك حوار يدور بين السلطان ذو المكان العالي والرفعة وصاحب السمو ,فيما نجد معه رجل بسيط يشتغل محاسب ,فكان هناك حوار بينهما نظرا لعدم إعجاب السلطان بالمحاسب ,رغم مكانة السلطان إلا أنه يراعي حقوق الناس رغم مركزه مكانته العلمية عكس المحاسب الذي كان ينظر إلى الناس بحسابهم "فكان يحاسب الناس ولا يحاسب نفسه" مع أن الطريق الذي يمشي فيه خاطئ.

على الرغم من كل هذا نجد نهاية القصة كمثل القصص التي سبقتها والقصص الآتية. فيها ظلم ومعاناة ,وحيرة في نهاية المطاف دلالة على ما مر به الإنسان.

"أصداء": مما يلفت الانتباه أن هناك صوت قوي خفي يصل إلى المدى البعيد ,حتى أن العنوان يروي قصة أن الصوت يختلف عن الجسد عند سماع الصوت ,وكأنه شاب في أول العمر صوت سلطان غمه الشيب.

وتنتهي بتساؤل وتعجب وكأن المحتسب والأصداء موضوعان مترابطان ,إلا أن لكل منهم موضوع خاص به.

فيما نجد "الزئير" من الصوت نعرف أنه صوت أسد بدون التطلع إلى قراءة القصة وبأن هذا الموضوع يتصف بالخشونة والقوة وهذا من صفات الأسد.

لكن حين الغوص في مضمون هذا الجزء نجده يشبه السلطان في قوته وجبروته بالأسد ,فشبه السلطان أو الحاكم بالأسد ,والرعية بالحيوانات التي يسيطر عليها الأسد نظرا لخوفهم منه.

فصوت الأسد مثل صوت السلطان ,كما أنه قال الخدم القط الذي ينهضه بموائه والنعامة بالإضافة إلى الحيوانات الأخرى البريئة.

فبعد أن كان هو حارس الغابة (ملك الشعب) الكل يخافه ويكون في خدمته ,حتى الذي لا يخاف منه يعمل على تجنب المعاقبة وهكذا أصبح يبدوا أن الرعية وكأنها ضده لا

---

[78] المرجع السابق ,ص49.

تتحرك ولا ترد عليه رغم زئيره العالي. حتى النمر الذي كان يخدمه أصبح ضده وهكذا توالت عليه.

من خلال هذا الزئير نجد العنوان يتماشى مع أحداث القصة كما أن الروايات متقاربة في الصفحات فلا تتعدى الصفحتان أو الثلاثة.

"النبوءة": من خلال هذا نجد أن هناك من يدعي النبوءة ,أي يتنبأ بما سيحدث. فهو حوار يدور بين منجم يدعي النبوءة وبين السلطان الذي وقف موقف المحتار. فذات يوم ذهب منجم إلى السلطان فالتقى به ولما رآه قال له: أحذرك من أعوانك بأنهم سوف يقتلونك ,لكن السلطان لم يهتم بذلك ,فرجع إليه مرة أخرى فدخل الشك للسلطان فاستدعى في إحدى الأيام أحد السحرة وحكى له ما قاله المنجم ,وهذا أصبح الساحر يفعل ما يفعل من أعماله. ورغم ذلك بقي المنجم يتردد في كل مرة على السلطان ويحذره. إلى أنه حان موعد موت السلطان فطعنه أحد أعوانه.

وكانت عند ذلك نهاية حزينة ,فالعنوان خدم المضمون وتماشى مع أحداثه.

"شاب من القرية البعيدة": تروي هذه الأحداث أن هناك شاب أتى من قرية بعيدة لا يعرف المكان الذي وصل إليه فالتقى بقائد الجند وكان ذلك الشاب يتصف بالقوة محبا للعمل نظرا لقوة عضلاته وهدوء نفسه. وعندما جرى الحوار بينهما وتبادل الكلام فأسكنه عنده ,ثم بعد ذلك نقله إلى المدينة وعلمه أساليب القتال من أجل الحرب على الشعب ,وهكذا أصبح الشعب كله يحبه.

وذات يوم خطر في بال قائد الجند أنه هناك من يترصد لمركب السلطان فأخبر عنه ذلك الشاب ,فقتله عندما كان في مخارج المدينة إلى السوق ,وهكذا كانت النهاية محزنة انتهت بقتل الأمير.

"حكاية من الزمن القادم": تروي أن هناك حوار بين مجموعة من الأشخاص البارزة داخل الرواية ,وكانوا متلازمون مع بعضهم من خلال هذا أدركنا أن ما بداخل الرواية ,كأنه هناك سرد لحياة ذاتية أي (سيرة ذاتية) ,فقال من خلالها شعرا:

"ما ثم إلا ما أراد فاترك همومك وانطرح

واترك شواغلك التي شغلت بها .....تسترح"[79]

بعدها تكلم عن نفسه وعن أمنياته وكأنها سيرة ذاتية ,ثم استدعى يوما من طرف "أبـــو خطوة" ,فأخذت الحيرة تنتابه ,ويفكر إلى أبعد الحدود ماذا سيقول له.

فسأله عن أحواله فأجابه بكل بساطة ,فأعجب به المعلم ,وأخبره أن ابتسامته التي كانت تشع أسنانه من خلالها بالبياض تعطيه تميزا خاصا ,وهكذا مرت الأيام.

ثم جرى حوار آخر بينهم حول البحر ,واقترح عليه إذا أسجنه ماذا يفعل ,فاختار وبدا يفكر هل إذا كان سيفعل ذلك ,فخاف وقبل طلوع الفجر عندما كان الكل نائما خرج ليغادر البيت ,فوجد "أبو خطوة" على النافذة يراقب البحر ,فسأله إلى أين؟ .فقال له: إلى البحـــر للصيد. فطلب منه العودة ,فأخبره بأنه سوف يعود ذات يوم. فأخبره أنه لو لم يرجع الآن فلن يدخل بيته أبدا وهكذا أكمل كريقه إلى البحر.

وهكذا كانت نهاية القصة مظلمة على المعلم "أبو خطوة" لما غـــادره الجنـــدي. فهـــي كالقصص الأخرى تنتهي بنهاية حزينة رغم ما مر به من سعادة ومرح في بداية الأمر.

"التراث ...لماذا نستلهم منه قصصنا؟":

بداية كانت بسؤال استفهامي ,وكأنه طلب للتفسير. في البداية رفض التراث العربي من الأدباء والأخذ بالنموذج الأوروبي ,ومن خلال هذا الشعار:

"فالتحيا الأصالة ,فالتحيا الإبداع ,فالتحيا التجديد والإصلاح"[80].

من خلال ما سبق وترابطه مع هذا يبدو وكأنه هناك تناقض ,فكيف ينادون بهذا الشعار وهم يريدون التخلي عنه ,فهذا تساؤل.

" فيوسف إدريس" في قصصه المصرية كانت تعبيرا عن الأصالة دون تقليد ,وغيرهم من الكتاب والروائيين كإحسان عبد القدوس ,وإبراهيم الورداني ,وأمين يوسف...وغيرهم.

ومن خلاله فإن المحافظة على التراث هو المحافظة على الأصالة ,ودعوة المدرســـة الحديثة إلى المثل الأوربي بهدف "تدمير الفاسد والرجعي وإقامة المقيد والضروري"[81]

---

[79] المرجع السابق ,ص89.

[80] المرجع السابق ,ص99.

[81] المرجع السابق ,ص100.

ومن خلاله نصل إلى استخدام الحاضر والمحافظة على الأصالة فلا يمكن التخلي عن التراث ,فالتخلي عن التراث يعني التخلي عن الهوية.

كما كان التراث اجتهادا أساسيا في القصة القصيرة والرواية المصرية خاصة. وكما بدأت المحاولات في الإفادة من التراث بدءا "بجرجي زيدان" واستمرار في أعمال "خيري سعيد " و"طه حسين" ...وغيرهم إلى الأجيال الحالية.

إذن نتساءل: فما صلة التراث بالأصالة؟ لماذا ؟

"يتلازمان ليصبح في تقدير البعض شيئا واحدا؟!"[82].

فكانت الإجابة على ذلك أن الفنان يتمثل التراث بحيلة إلى ذاته.

يقول زكرياء إبراهيم: " إن العمل الأصيل يستبقي التراث ,ويلغيه في آن واحد ,أو أنه يحتفظ بهذا التراث بواسطة العمل على تجاوره"[83].

كما تناول تعريف للأصالة على أنها ليس مجرد العودة للقديم. كذلك الأصالة لا تكمن في واقعه التمايز أو الاختلاف بقدر ما تكمن في عملية الاستقلال الذاتي.

فالأصالة هي الإفادة من القديم وتضفيره في أعمال فنية تعبر عن الذات المبدعة ,كما أننا نقرأ التراث لنستلهمه لا لنبعده.

وتكمن العلاقة مع الغرب بأنها علاقة جدلية ,فكل جيل يحافظ على التراث ,كما يأخذ بالجديد حتى لا يكون هناك ركود.

وهكذا كان الجواب على العنوان باعتباره سؤال يحتاج إلى جواب.

من خلال هذه العناوين الفرعية ,نجد أن كل موضوع يخدم مل بداخل القصة ,باعتبار الرواية مجموعة قصصية تدور بواسطة حوار كما أن عنوان الرواية "حكايات وهوامش من حياة المبتلى" تخدم الرواية فالعنوان في ذاته جاء حوار داخل الرواية(المضمون).

وباعتبار الرواية مجموعة قصصية وكل قصة صغيرة تتناول موضوع معين إلا أن لها نفس النهاية "الظلام والحزن".

كما أن العناوين تفهم بمجرد قراءتها ,فلما نقرأ العنوان ونسقطه على الموضوع نجده يخدمه.

---

[82] و[3] المرجع السابق ,ص104

وعلى الرغم من بعد العناوين إلا أنها تتفق في المضمون .وكأنه هناك ترابط وانسجام ,وهذا حتى لا يقع القارئ في ضغط نفسي أو ملل.

وبالرغم من الغموض الذي كان بين أساطير القصص إلا أنها كانت مشوقة ,إضافة إلى أن كل موضوع كان منفصل عن الموضوع الذي من بعده.

وهذا هو الجديد في الروايات والذي جذب انتباه القارئ ليتناول المزيد ,ويفكك السطور.

وبالتالي على كل قارئ أنه عندما يقرأ قصة أو رواية لا بد أن ينظر إليها من جميع الزوايا ,القريبة منها والبعيدة حتى يكتشف كل الثغرات ,ويزداد تعلقه بها أكثر ,حتى يتحصل عل نتيجة في الأخير.